

مقدمة

بهذا العدد تبدأ صحيفة دار العلوم سنتها الرابعة . سائرة على نهجها ، ماضية على سنتها ، مؤمنة برسالتها التي لها أنشئت ولها تجاهد ، وفيه بالعهد الذي أخذته على نفسها من أول يوم : أن تكون لسان الأدب الصحيح ، وبجال الرأي الصريح . ومعرض الفكر الناضج ؛ وأن تكون اللسان الناطق لأبناء دار العلوم عامة ، تعبر عن أغراضهم ، وتكشف عن مواهبهم ، وتبلغ رسالتهم إلى الشرق والغرب . وإنه ليسر الصحيفة وقراءها أن يكون ماضيها المنشور في صحائف سنواتها الثلاث ، شاهداً بما بذلت من جهد وما تسعى إليه من غاية ، معبراً أبلغ التعبير عما بلغت من نجاح في سبيل الغرض الذي عاهدت قراءها عليه .

وبما يضاعف سرورنا أن نرى صحيفتنا — على حدائق عهدها — تشق طريقها في مضاهي وعزم إلى مختلف الجامعات الأدبية في الشرق والغرب ، وأن تنال حقها من التقدير في كل البيئات الأدبية التي تعني بالعربية : من أدباء العرب في فلسطين وسوريا والعراق وبلاد المغرب ، ومن علماء المستشرقين في أوروبا وجامعاتها العلمية . وهذه ترجمة رسالة من الاستاذ ادوارد روبرت سون أستاذ اللغات السامية بجامعة منشستر تعبر عن رأيه في صحيفة دار العلوم :

حاضرة المحترم مدير صحيفة دار العلوم :

سيدي العزيز

وصلتنا مجموعة « صحيفة دار العلوم » ، التي تفضلت جماعتكم بإهدائها إلى قسم دراسة اللغات الشرقية على يد الاستاذ مهدي علام ؛ وإنني أود أن أشكركم شخصياً وأشكر أعضاء الجماعة على هذه الهدية النفيسة لمعهدنا ، وإنني لشديد الإعجاب بما وصلت إليه صحيفتكم ، وبالمستوى الأدبي والعلمي الذي تحافظ عليه . وأرجو الله أن تستمر ماضية في خطاها إلى الكمال .

ويسرني كذلك أن أعبر لكم عن عظيم سروري لمزاملة الاستاذ علام لنا في معهدنا ، وإننا لنعرف له مكانته وتقدير خدماته أجل تقدير .

هذا المنهاج والتغلب بسهولة على كل ما وضع فيه من شذوذ وتكلف . وهل لذلك علاقة بما جاء في العبارة الختامية لكلام العميد في اقتراحه الغريب وهي قوله : « وواضح أن هذا البرنامج قد يميز أساتذة التعليم الثانوي عندنا كبقية المنهج الأدبي بالسنة التوجيهية . » ثم يعلن ما أخفاه من نيته في نصيحته بوجوب إصلاح برامج التعليم في المعاهد التي تخرج أساتذة اللغة العربية بحيث يصبحون قادرين على تعليم هذا النحو من الأدب . فقد بان حيثئذ ما حاول العميد أن يخفيه من نيته ، وظهر أن المسألة ليست وضع منهج ولا مصلحة تعليم ولا إعداداً للجامعة ولا لغيرها ، وإنما المسألة كلها دائرة حول أساتذة اللغة العربية في المدارس الثانوية والتبرع الجري . بتقدير صلاحيتهم لدراسة الأدب أو عدم صلاحيتهم ، والاستدراج من جراء ذلك إلى الوقوع في هذا الشذوذ الذي لم يسبق له مثيل في مناهج التعليم ولا نظيره في مدارس العالم ، فالتنازستنا مناهج التعليم في المدارس الثانوية الأوربية ، وأحطنا بما يتأهل به الشاب الأوربي في هذه المرحلة الثانوية ، فما في أمريكا ولا في أوروبا ولا في أي بلد من بلدان الدنيا دراسة أدبية في مدرسة ثانوية تشتمل على هذه الاشتات الملققة من مؤرخين وفلاسفة ومتكلمين وعلما وكتاب وشعراء للعالم القديم والحديث يدرسها طالب في المنهج الأدبي للغة الخاصة . ولا تدرى كيف ساغ لصاحب هذا الاقتراح أن يعرض مصلحة التعليم في البلاد — وهو الأساس الذي تبنى عليه حضارة الشعب وبه يقوم كيانه الاجتماعي — لمثل هذه الأغراض التي لا تخرج عن الرغبة الجائرة في اغتصاب ما لأساتذة اللغة العربية من الملكات المكتسبة بطول المراتة والتجربة والاستفادة الحقة من حسن الاعداد المعهدي للتوفر على دراسة اللغة العربية وآدابها وحمل أمانتها والاضطلاع بمحايتها والدفاع عنها والاجتهاد في تزويدها بكل ما يسير الحضارة في هذا العصر الزاهر ، والتعدي على اختصاص وزارة المعارف في الاشراف الكامل على هذه السنة التوجيهية التي هي جزء متمم لمرحلة الثقافة العامة في الدراسة الثانوية ، ليصل من وراء ذلك إلى غرضه .

وتقبلوا فائق احترامنا وعظيم إجلالنا .

وإني أكرر شكرى وأرجو أن تفضلوا بقبول تحبتي الخاصة .

ooo

على أن ما بلغناه من نجاح لا يعفينا من تجديد العهد لقرائنا وأصدقائنا في الشرق والغرب ، على أن نضاعف الجهد للوصول بالصحيفة فوق ما وصلت إليه ، دائبين على العمل لرفع مستواها الأدبي والعلمي . حراساً على أن تكون صحيفة دار العلوم هي عنوان دار العلوم التي تعمل منذ نصف وستين عاماً على إحياء العربية وتجديد آدابها .

ooo

وإنه لما يدعونا إلى التفاؤل والاستبشار ، أن نبداً عامنا الجديد ومصر في أول عهدها السعيد ، متفائلة مستبشرة بما حطت عن كاهلها من قيود كانت تحد من سلطانها التشريعي وتحرمها أن تحيا الحياة الصحيحة . وأن يكون على عرش مصر مليكها الشاب المحبوب فاروق الأول ، الذي تتطلع الأمة كلها فرحة إلى اليوم السعيد الذي يبلغ فيه جلالته سن الرشد ويضع على رأسه التاج المجيد . وإذا كان تنويع جلالته سيكون في الشهر الآتي فانا نستعجل البشرى قهين . مصر بجلالة مليكها العظيم ، ونهى جلالته بمحبة هذا الشعب الذي اجتمع قلباً واحداً على تمجيده والولاء له .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن ننهي حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وزملائه أعضاء الوفد الرسمي على ما أحرزوا في مؤتمر الامتيازات من نجاح سيكتب لهم في التاريخ بمداد الخلود .

ooo

ولقد انتهت السنة الثالثة من الصحيفة وهناك أمر ذو بال بهم كل المشتغلين بالأدب العربي وبالتقافة العربية في هذا البلد ، ذلك هو منهج الأدب العربي للسنة التوجيهية في المدارس الثانوية .

لقد كان للسنة التوجيهية منهج في الأدب اشترك في وضعه عميد كلية الآداب بالجامعة مع حضرات مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، ولقد عالجت

بعض فلاسفة الغرب الذين أثروا في آداب لغتهم تأثيراً عميقاً كد يكارث وفلتر
ولبنتز واستوارت ميل وسنسر

الشعر : تعريفه . نشأته . المؤثرات التي تعمل في رقبه وانحطاطه

أنواعه : — (١) الشعر القصصى : خصائصه . هو ميروس وآثاره

(ب) الشعر الغنائى : خصائصه وتمثيل ببعض البارزين فيه من القدماء والمحدثين
(ج) الشعر التمثيلى : وتمثيل ببعض الشعراء البارزين فيه من القدماء والمحدثين : سوفكل
(من اليونان) ، شكسبير (من الانجليز) — أحد الشعراء التمثيليين الثلاثة الفرنسيين . كرنى .
راسين . موليير . تقسيم التمثيل إلى التراجيديا (التمثيل المحزن) والكوميديا (التمثيل
المضحك) وخصائص كل منهما . خروج التمثيل عن الشعر إلى النثر وأسبابه — التمثيل الغنائى
١ — الآداب الأجنبية الكبرى التى اتصلت بالآداب العربى فأنثرت به أو أثرت

فيه وكيف كان هذا الاتصال

(١) الآداب اليونانى (ب) الآداب الفارسي (ج) الآداب الهندى

صلات هذه الآداب بالآداب العربى القديم فى العصر العباسى

٢ — تأثير الآداب العربية فى آداب الفرس المسلمين من جهة ، وفى الغرب الأوروبى

أثناء القرون الوسطى من جهة أخرى . أدلة واضحة على هذا التأثير

الآداب الأجنبية الحديثة الكبرى التى اتصلت بالآداب العربى فأنثرت به أو أثرت فيه .

أمثلة واضحة لتأثر الآداب الأجنبية بالآداب العربى فى العصر الحديث

كيف اتصل الآداب العربى بآداب الأوربيين المحدثين وأثر فى أدبهم شعراً ونثراً

كيف اتصل الآداب الأوربى بآداب العرب المحدثين وأثر فى أدبهم شعراً ونثراً .

أمثلة واضحة صريحة لهذا كله . أم

رد جماعة دار العلوم

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف :

تشرف جماعة دار العلوم ، باعتبارها الهيئة الممثلة للمعلمين القائمين بتدريس اللغة
العربية وآدابها ، فى جميع المدارس المصرية على اختلاف أنواعها ، برفع ملاحظاتها الفنية ،
على الاقتراح المقدم من حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب ، بشأن تعديل المنهج
الخاص بالآداب العربى وتاريخه فى السنة التوجيهية ، التى كان حضرته أحد المشتركين
فى وضع مناهجها والموافقة عليها ، متقدمين بهذا التمهيد الذى جعلناه أساساً لما نبديه من
الملاحظات فيما يأتى :

أولاً — اتفق المربون في مصر وفي غيرها من بلدان العالم الراقية على تقسيم التعليم النظامي إلى مراحل ثلاث :

(١) التعليم الابتدائي . (ب) التعليم الثانوي . (ج) التعليم العالي
وهذا التقسيم يرى إلى غرضين أساسيين تدعو إليهما حاجة المجتمع : أولهما تخصيص كل مرحلة من المراحل بنصيب من المعارف والتدريب يلائم عقول المتعلمين وقواهم الذهنية ، ويؤهلهم لمزاولة الأعمال العامة على قدر استعدادهم وثقافتهم ، وثانيهما أن تكون كل مرحلة أساساً للنّية التي تليها وتمهداً صحيحاً لها ، ليسهل على الطلاب التحصيل والاستفادة في كل مراحل التعليم .

وإن نظام السنة التوجيهية الملاحقة بمرحلة التعليم الثانوي شاهد بطبيعته على وجود فقرة بين المرحلتين الثانية والثالثة تقوم هذه السنة التوجيهية بسدادها على أيها تكميل لمرحلة التعليم الثانوي ، كما نصت على ذلك المذكرة التفسيرية لحطة الدراسة الثانوية ومناهجها (ص ٥٧)

ثانياً — واتفق المربون أيضاً على أن دائرة المعارف الانسانية ترجع في جملتها إلى الدين والعلم والأدب والفلسفة ، وأن كل نوع من هذه الأنواع قد تحدد الآن موضوعه وطرق البحث فيه فلم يعد يقل في دائرة حدوده أي دخيل ، فإلم يكن من الفلسفة مثلاً لا يذكر في تاريخها العام ولا يحشر في نوع منها ولا في مذهب من مذاهبها ، وكذلك أدب اللغة الواحدة سواء أكان عاماً أم خاصاً لا يرضيه أن يقرب إليه أي مزاحم في أبوابه وفصوله ، وإن كان الأدب العام منه يتعرض لوصف الحياة العقلية العامة ، ولكن ذلك بمقدار لا تغلب فيه هذه الدراسة على شيء من الأدب الخاص ، وهذا واضح الدلالة على أن المعارف الانسانية قد رتب وعين اختصاص كل منها في البحث والتبويب والوضع والتعليم والتعلم ، وهي في مجموعها وفي كل ما يسديه بعضها إلى بعض من المعونة عبارة عن الثقافة الانسانية العامة المنتظمة الممهدة .

وعلى ضوء هذا البيان السابق ترى الجماعة أن المنهج المقترح غير محقق للصلة بين المرحلتين ، ولا يجوز أن يكون في جلته موضوعاً دراسياً في السنة التوجيهية ، لما يأتي :
أولاً — يقول الاقتراح عند الكلام على التاريخ وأنه فن من فنون الأدب :

وقفة عند أشهر المؤرخين - هيرودوت وثيوسديد من اليونان - تالف - تسييت من الرومان . ثم أضاف إلى ذلك دراسة اثنين من المؤرخين الأوربيين يجوز أن يتغيرا من عام إلى عام . وقد بحثت الجماعة في هذه الفترة وأدارت عليها وجوه الرأي لالتماس أية علاقة بين الأدب العربي وتاريخه وبين مؤرخ للتاريخ العام كهيرودوت الذي كتب

تاريخه في القرن الخامس قبل الميلاد، أى قبل أن يعرف الأدب العربى وتاريخه بقرون طويلة ؛ وإن اقحام هؤلاء المؤرخين للتاريخ العام على هذا النظام من الكثرة والتكرار فى تاريخ الأدب العربى يعد مناقضة ظاهرة للنظرية القائلة بتعيين اختصاصات العلوم وتحديد موضوعاتها وعدم تسليم العلماء بصحة الخاط بين مباحث هذه العلوم .

ثانياً - ذكر الاقتراح الفلسفة وأنها من مظاهر الحياة الأدبية ، ورتب على ذلك دراسة سقراط وأفلاطون من قداماء فلاسفة اليونان ؛ ولو كان كل ما بعد مظهر آ من مظاهر الحياة الأدبية ، يجب دراسته فى تاريخ الأدب العربى ، مانى شىء من علم ولا فن ولا صناعة لا يتعرض له تاريخ الأدب العربى ويترجم للشعورين من رجاله ، على أن سقراط وأفلاطون يدرسان بتوسع فى المنهج الخاص بالفلسفة وتاريخها ، فما الداعى إلى حشره فى منهج الأدب العربى مرة أخرى .

ثالثاً - ذكر أثر علم الكلام الإسلامى فى الأدب العربى ، وساق طائفة من أسماء علماء الكلام كأهم من المعتزلة . ودراسة هؤلاء الرجال ستفضى إلى بيان مذاهبهم فى الخلاف على أهل السنة وهم جمهرة المسلمين ، ومن شأن هذه الدراسة أن تفتح الباب للشبهات وذكر ما استحدثه المعتزلة من أنواع البدع فى الإسلام . ومواجهة هذه العقول الغضة بأمثال تلك الشبهات يعد إفساداً لروح الدين وتوهيناً لقوة العقيدة فى نفوس نشأ البلاد الذين هم فى أشد الحاجة إلى الإيمان الراسخ واليقين الثابت ، ويجب إبعادهم عن مثار تلك الشبهات وتقريبهم من معالم الإسلام الصحيحة بدراسة طائفة من رجال أهل السنة وأعلام علماء الكلام من السلف الصالح ، ، ذلك هو أقوى أساس تبنى عليه حياة الشعوب القائمة على عزة الدين وكرامة الاعتماد على النفس ؛ وبما يوجب الأسف والدمعش أن يعنى المنهاج المقترح بدراسة المعتزلة فى تاريخ الأدب العربى دون غيرهم . وفى ذلك ماقد يلقى فى شعور الطلبة الميل إلى مذاهب المعتزلة دون غيرها من مذاهب علماء الكلام . وقد يما قال أهل السنة وهم كثرة المسلمين وجمهرة علماء الكلام الإسلامى فى المعتزلة : إنهم مارقون يظهرون العقائد الفلسفية فى لباس من الجدل فى الكلام

وفى هذه الفقرة نفسها ذكر جماعة من فلاسفة الأوربيين الذين أثروا فى آداب لغاتهم تأثيراً عميقاً كديكارت وفولتر وليبنز واستوارت مل وسبنسر ويلاحظ أن ديكارت وليبنز ذكرا أيضاً فى المنهج الخاص بالفلسفة . وظاهر ما زعمه من وصف أولئك الأسماء بتأثير أصحابها العميق فى آداب لغاتهم أن التلاميذ فى السنة التوجيهية بل والسنة التى تليها لا يستطيعون أن يتحملوا هذا القسط العنيف من الدراسة العميقة لهؤلاء

الفلاسفة . وما الذى يبقى للتعليم الجامعى أو للثقافة العليا بعد دراسته تلك الاعلام فى السنة التوجيهية على هذا النمط من التعمق والبحث ؟

رابعا - فى منهج الشعر التعريف بميروس وآثاره وسوفوكلى اليونانى ، وشاكسبير الشاعر الانجليزى ، وكورنى وراسين ومولير الفرنسيين ، وغيرهم من شعراء التراجيديات والكوميديات ، وهل يكون يسيراً على ثقيلة التلاميذ فى التعليم الثانوى وفى هذه السن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة على الاكثر أن يهضموا هذه المعلومات الواسعة عن أولئك الشعراء الأجانب الذين يعدون رموس طبقاتهم وفحول الادب فى عصورهم ؟ وإذا كان للادب العربى أن يتجاوز حدوده ويتناول ما ليس منه ، ما ذكرنا فماذا بقى لمدرسى الآداب الانجليزية والفرنسية وغيرهم من أساتذة التاريخ العام والفلسفة ؟

خامسا - (ا) الآداب الاجنبية الكبرى التى اتصلت بالادب العربى كالادب اليونانى والادب الفارسى والادب الهندى وكيف أثرت هذه الآداب المختلفة فى الادب العربى

(ب) الآداب الاجنبية الكبرى الحديثة التى اتصلت بالادب العربى فى العصر الحديث ، وذلك بالضرورة يشمل آداب اللغة الفرنسية والانجليزية والالمانية والايطالية والامريكية والهندية والفارسية والتركية الحديثة

وفى هذه الفقرة يطلب أيضا صلة الادب العربى بكبار الادباء المحدثين من العرب وتأثيره فى أدبهم شعرا ونثرا ، وإذا كان الطالب فى السنة التوجيهية وفى هذه السن وعلى هذا المقدار من التحصيل فى اللغة العربية فى مرحلة الثقافة العامة يكلف دراسة هذه الكثرة من شعراء الأجانب وهذه الآداب الحديثة والقديمة للأمم المختلفة فى منهج تاريخ الادب العربى ، فإذا يدرس المتخصصون فى هذه الناحية من الثقافة ؟ وماذا يصنع المتصدرون للزعامة الادبية والذين يريدون أن يكونوا أئمة فى النقد والموازنة ؟ وما الذى تصنعه بعد ذلك كلية الآداب أو غيرها لتقام هذه الثقافة الشاذة ؟

وإنه ليقضى لنا ولكل من يطلع على هذا الاقتراح الغريب أن يتساءل : هل منهج الادب العربى فى السنوات الأربع السابقة للسنة التوجيهية من التعليم الثانوى - وقد اشترك فى وضعه صاحب الاقتراح - بعد التليذ لاحتقال هذه الدراسة ؟ وألا يكون التليذ موجها توجيهاً صحيحاً للدراسة العالية بغير هذا النوع المسرف من التحصيل لآداب الأمم المختلفة وتواريخ كتابها وشعرائها وفلاسفتها ؟ وهل التليذ الأوروبى فى هذه الدراسة الثانوية وفى تلك السن المتراوحة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة يكلف فى

صحيفة دار العلوم أكثر موضوعات هذا المنهج في العدد الرابع من السنة الثالثة وفي هذا العدد ؛ وهي ماضية في الكتابة عن بقية المنهج في العدد القادم ، وفاء بعهدا لقرائها ، وعونا للمعلمين على أداء واجبهم . ولكن فكرة ماخطرت بخاة في رأس صاحب العزة عميد كلية الآداب ، فإذا هو يتقدم بمشروع جديد إلى وزارة المعارف لتعديل منهج الأدب في السنة التوجيهية ، تعديلا لا نريد أن نكشف عن الدافع إليه ، وحسب القراء أن يقرؤوه فيما يلي فيفهموا منه مالا نريد أن نقول .

كان في هذا العمل معان لم تحف على أبناء دار العلوم ، فاجتمعوا على رأى واحد رفعوه إلى وزارة المعارف يأخذون فيه مأخذهم على هذا المنهج المقترح ، وسنشر فيما يلي ذلك المنهج ورد جماعة دار العلوم عليه . وبقينا أن وزارة المعارف ستقدر هذه الملاحظات الصائبة التي أبداها أبناء دار العلوم في منهج الدكتور طه حسين بك .



السنة التوجيهية

القسم الأدبي

منهج الأدب

الأدب بمعناه الخاص وهو الجيد من منظوم الكلام ومشوره . الأدب بمعناه العام وهو الإنتاج العقلي على اختلاف أنواعه . المؤثرات العامة التي تعمل في نشأة الأدب و رقيه و انحطاطه - تقسيم الأدب إلى إنشائي ووصفي . تقسيم الأدب إلى إنشائي إلى شعر و نثر . تقسيم الأدب الوصفي إلى نقد و تاريخ أدبي .

النثر وأنواعه

الكتابة الفنية وأنواعها : نشأتها و المؤثرات التي تعمل في رقيها و انحطاطها .
الخطابة : دواعيها . نشأتها و المؤثرات التي تعمل في رقيها و انحطاطها . أنواع الخطابة :
الخطابة السياسية . الخطابة القضائية . خطابة المحافل و المشاهد العامة و خصائص كل .
أجزاء الخطبة : الابتداء . الموضوع . الخاتمة ، وما ينبغي لكل .
الخطابة كما يتصورها اليونان و الرومان . الخطابة كما يتصورها العرب . الخطابة كما يتصورها المحدثون ، و تمثيل ببعض الخطباء البارعين في هذه الأمم .

التاريخ : من حيث هو فن من فنون الأدب . وقفة عند أشهر المؤرخين -

هيرودوت - تيوسيدد (من اليونان) ؛ تليف - تاسيت (من الرومان) ؛ الطبري -
ابن خلدون (من العرب) ؛ اثنان من المؤرخين الأوربيين يجوز أن يتغيرا من عام إلى عام
فلسفة التاريخ : كيف تصورهما قداماء اليونان و الرومان . كيف تصورهما العرب .

كيف تصورهما المحدثون من الأوربيين .

الفلسفة : من حيث هي مظهر من مظاهر الحياة الأدبية ، و من حيث تأثيرها

في تنظيم الفكر و ضبط التعبير الأدبي . سقراط . أفلاطون

أثر علم الكلام الإسلامي في الأدب العربي . تمثيل ببعض البارعين من المتكلمين
المسلمين كبشر بن المعتمر و النظام و الجاحظ و ابن أبي دؤاد و يحيى بن أكرم و ثمامة بن أشرس

دراسة آداب لغته أن يدرس معها الأدب العربي وتاريخ كتابه وشعراته وغيرهم من علماء العرب وفلاسفة الإسلام على هذا النحو المقترح ؟ وهل يكلف فوق هذا دراسة آداب اللغات القديمة والحديثة للأمم الأجنبية من الفرس والهنود واليونان والرومان وغيرهم ؟

إننا نترك الإجابة على هذه الأسئلة لاشتغالها في نفسها على أدلة شذوذها وبطلانها ، وهذا المنهج في النهاية لا يتفق في شيء مع المذكرة التفسيرية التي وضع على مقتضاها سادساً - اقترح العميد حذف قواعد النحو والبلاغة بناء على أن ما أخذ منها في السنوات الأربع يعد كافياً ، وهذه مناقضة صريحة لما ورد في المنهاج المعدل ، فقد جاء فيه ما نصه : « وروعي في القواعد أن يكون المنهج مكملًا للتلاميذ ما لم يدرسوه في مرحلة الثقافة العامة مما لا يليق بأمثلهم أن يجملوه من قواعد النحو والبلاغة ، وذلك بالضرورة ملحوظ فيه أن تذوق الطالب لجمال الأدب وإدراكه لمواطن الحسن في التشبيه والاستعارة والفصل والوصل والابحاز والاطناب متوقف على دراسة هذه البقية من القواعد . وإذن يعترف منهاج السنوات الأربع بأنه في حاجة إلى تكملة القواعد في السنة التوجيهية .

سابعاً - حذف المنهاج المقترح حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي ، وجاء في المنهاج المعدل بعد كلام في توجيه قسط من العناية بالخطابة ما نصه : « كما وجه قسط آخر لتدريس حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي والعصر الحاضر لبيان سنن أسلافنا الأقدمين في سلوك سبيل نحن مضطرون إلى سلوكها الآن في نهضتنا العلمية وخاصة خريجي القسمين الرياضي والعلمي ، وصاحب الاقتراح كان كما قدمنا عضواً بارزاً في وضع منهج اللغة العربية لمرحلة الثقافة العامة وللسنة التوجيهية ، وفي موافقته على المنهاج المعدل اعتراف بأنه محقق للغرض من إنشاء هذه السنة التوجيهية ، بل هو قد شرع فعلاً في الإعداد لتنفيذه باختيار طائفة ممتازة من أساتذة المدارس الثانوية تلقى عليهم محاضرات في الجامع ترك الكلام الآن على حظها من النجاح أو الفشل . وقد بادرتنا نحن من جانبنا بأعداد كل ما ينفي لدرس هذا المنهاج على أكمل وجه وأتمه ، وتسارع أعضاء الجماعه من أساتذة دار العلوم وغيرهم من إخوانهم فكتبوا في موضوعات هذا المنهاج ما طبع بعضه في عدد كامل من صحيفتهم ولا يزال بعض هذه الموضوعات معداً للطبع ، ولا ندرى ما حفز الدكتور مع ذلك إلى هذا الاقتراح بعد ما ظهر له من استعداد أساتذة اللغة العربية من أبناء دار العلوم لمواجهة

السنة الرابعة (ربيع الآخر سنة ١٣٥٦ هـ - يونيه سنة ١٩٣٧ م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

مجلة الأذنين واللغة والتربية والاجتماع

نصرها جماع دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

محمد نجيب حيازة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي يومي

المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوي

٢٠ قرشا

٦ شلنات انجليزية

٥ قروش

في القطر المصري

خارج القطر

من العدد

الطبعة الخامسة

اثر علم الكلام الاسلامي في الأدب

بقلم محمد موسى عفيفي

المدرس الأول بالمدرسة الابراهيمية الثانوية

مقررات :

- ١ -

درج الناس منذ فطرهم الله تعالى على تأثر ما شرع لهم من شرائع يناقشون أصولها ، ويعلمون أحكامها : يتدبرون معانيها ، ويفهمون مراميها ، ويؤولون متشابهها ، ويفسرون عويصها ؛ ويستخلصون لأنفسهم من هذه الأصول فروعا ليست سواء عندهم جميعا ، لأنهم فيما يستنبطون يستند بعضهم إلى ما هدتهم إليه عقولهم من الأخذ بظاهر نصوص الأصل ، وبعضهم لا يقنعون بذلك ويأبون إلا أن يمعنوا في التأويل والتخريج والتوجيه لمجرد شبهة عرضت لهم ، ولذلك اختلف أرباب الأديان التي سبقت الإسلام : كاليهود والنصارى وغيرهم في تفهم الأصول وما تلد من فروع ، وجادل بعضهم بعضا جدا لا عنيفا جر إلى افتراقهم فرقا عدة ، ولم يكن حظ الإسلام - الذي جاء بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، وأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية : كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه أحد أو شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم إليه راجعون « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » - لم يكن حظ الإسلام بأحسن من حظ الأديان التي سبقتة . فافترق المسلمون ، واختلفوا في تفهم أصول دينهم ، أو العقائد التي قام عليها علم الكلام ، وفيما يلي بيان العوامل التي كانت سبباً في هذا الاختلاف

- ٢ -

خفقت بنود الإسلام على عظم ما كان معروفاً من الأرض : كفارس والعراق وسورية وفلسطين ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من ممالك الأرض كجذر البحر المتوسط ، ومن سكان هذه الأقاليم النصارى ، واليهود ، والصابئة ، والمجوس ، وهم يختلفون جميعاً في عقائدهم ، فمرت تعاليمهم بحكم المخالطة والمجاورة إلى نفوس المسلمين ، التي تأثرت بها إلى حد ما ؛ ودخل كثير من هؤلاء في الإسلام ؛ لأنه أبيض الوجه ، ولا لأنه أكمل للإنسان سعاده بما منحه من استقلال الإرادة ، واستقلال الفكر والرأى ، وقد كان حرهما زمناً طويلاً ؛ بل ليكيدوا له كيداً ، انتقاماً لدولهم الدائلة ، وأديانهم الزائلة ، ففسدوا فيه من الأساطير والأحاديث المفتراة . وبما أرادوا به تشويهه ، ما لعله يفتح السبل لأقوالهم فتنفذ إلى العقول .

ووردت في القرآن الكريم والسنة الشريفة آى وأحاديث ، يورهم ظاهرها غير مافسرها به السلف الصالح ، فأخذ ذوو الأغراض والأهواء يتمسكون بظاهرها ، ويجادلون فيها ليد كوا نار الفتنة التي يعملون لها جاهدين ، لعلهم يطفئون النار التي تاجج في صدورهم ، وتأكل قلوبهم .

وانتشر القصاص في المدن الإسلامية بالمجالس والمساجد منذ فجر الإسلام . ومنهم من كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو صابئياً . وتناولوا الكلام في بعض حوادث وقتهم ، ومعرفة حكمها من الدين ، ولم يتورع أكثرهم عن ذكر الخرافات ، وسوق الأساطير التي تكسب قصصهم روعة وقبولاً ، ففتح بذلك باب دخل منه على الحديث الشريف كذب ، واسودَّ به وجه التاريخ ؛ لما اندس فيه من حوادث زائفة ، كان لها أثر سيئ في عقيدة المسلمين .

وشىء آخر يضاف إلى ما سبق ، هو الخوض في الغيبات التي كانت وما زالت مزائق للباحثين ، مع أن العقل الإنساني لن يستطيع أن يصل إلى كنهها بالغاً ما بلغ من الحصافة والنشاط .

هذه العوامل - التي ذكرنا وغيرها مما لم نذكر اختصاراً - هيأت العقول للجدل

والكلام فى المسائل الدينية والسياسية ، فثارت ريح الخلاف لاختلاف وجهات النظر وتباين الأغراض والمراى ، وتشعب الآراء فى الحوادث إبان الصدر الأول ، وتمخضت عن نشوء فرق إسلامية مختلفة ، خاضت ميادين الكلام ، وأذكت ناره : ففرقة إسلامية تجادل أخرى إسلامية ، وفرق إسلامية تجادل الدهريين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن قذفوا الإسلام بشبههم ، وغضوا من جلاله كيدا ، وما زالت هذه الفرق تنمو ويشق بعضها من بعض على الأيام للخلاف الذى يقع بينها حتى كثرت ، وأغرق بعضها إغراقا ضل به سواء السبيل .

— ٣ —

بعض الفرق الإسلامية المشهورة :

ومن أشهر الفرق الإسلامية القدريّة الذين يقولون : « لا قدر والأمر أنف ، ومجمل ما يذهبون إليه :

أولا : إنكار قدر الله تعالى الذى صرحت به الآى الكريمة ، وجاءت به الأحاديث الشريفة ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : « لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله تعالى يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه ، فيكتب أجله ورزقه وعمله . وشقى أو سعيد ، (١)

ثانيا : إن الله تعالى غير خالق لا كسب الناس ، وليس له (عز وجل) فيها صنع ولا تقدير ، وأن الإنسان حر الإرادة ، وله قدرة على كسب أفعاله ، وهو على خيرها يثاب ، وعلى شرها يعاقب .

ثالثا : نفي صفات الله : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، التى وردت بها الآى الكريمة ، مستنديين فى ذلك النفي إلى أن اتصافه تعالى بهذه الصفات يدل على شبهه بالمخلوقين ، وهو مستحيل عليه .

رابعا : خلق القرآن نتيجة لنفى صفة الكلام عنه تعالى .

ويروى مؤرخو الفرق : أن أول من أنكر القدر وقال بما بنى عليه ، معبد

ابن خالد الجهني^(١). أخذه عن رجل كان نصرانياً^(٢) أو مجوسياً^(٣) وأسلم يقال له سيسويه^(٤) كان يسكن البصرة، وعن الرجل عينه أخذ غيلان الدمشقي الذي كان أبوه مولى لعثمان بن عفان، وعن هذين - وكانا خطيين مُقَوَّهين - أخذ الناس، فسال سيل القول بالقدر على المعنى السابق في العراق والشام. فأما معبد فقتله الحجاج صبراً أو آخر سنة ٨٣ هـ لخروجه مع ابن الأشعث^(٥) وأما غيلان فقتله هشام بن عبد الملك في خلافته ١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ لأسرافه في القول بالقدر، وتسميعه بحكومة بني أمية، ولم يكن حظ أولياء معبد وغيلان بأحسن من حظهما، ولا سيما في خلافة هشام.

الجبرية أو الجبرية :

ومن الفرق الإسلامية التي كانت من مولود العوامل السابقة : الجبرية أو الجهمية، أو المعطلة، أو القدريّة أيضاً، ومجمل ماذهب إليه هؤلاء الجبريون : أولاً : إن الإنسان لا قدرة له على شيء ولا اختيار ولا كسب له، وإنما هو مجبور على أفعال قدرها الله تعالى عليه ولا بد أن تصدر منه.

ثانياً : إن الله تعالى يخلق الأفعال في الإنسان خلقاً فلا تنسب إليه إلا مجازاً،

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥، وشرح العيون لابن نباتة ص ٥١ هامش
الغيث المسجم

(٢) شرح العيون الصفحة عينها، والإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٣، ٤) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ندبه الحجاج لقتال رتييل، ملك الترك، فلما غزا سنة وغنم مغنم كثيرة رأى أن يتدرج في الفتح لئلا يهلك جنوده، فلم يصادف ما رأى هوى في نفس الحجاج، وأمره بالإيمان في بلاد العدو، فمرض عبد الرحمن الأمر على معاونيه وجنوده، فرأوا رأيه، وخلعوا طاعة الحجاج وعبد الملك بن مروان، ثم زحف ابن الأشعث بجنوده نحو العراق لقتال الحجاج، فلما التقى الجمعان تغلب الحجاج على خصمه وهزمه وجنوده دجهمرة فخطب العرب للاستاذ أحمد زكي صفوت،

كما تنسب إلى الجداد، فكما يقال: طلعت الشمس مثلاً بدون أن تكون فاعلة للطلوع، يقال: سافر فلان أو حارب، بدون أن يكون فاعلاً حقيقياً للسفر أو الحرب. ثالثاً: نفوا صفات الله تعالى التى وردت بها الآى الكريمة، كما فعل القدرية، فرأوا من تشبيهه تعالى بال مخلوق، وقالوا: يجب ألا يؤخذ ماورد من الآيات على ظاهره بل لا بد من تأويله.

وزعيم هذه الطائفة وأسبق الناس قولاً بالجبر: جهم بن صفوان الخراسانى، مولى بنى راسب، وكان خطيباً خلاباً ذا بيان وفصاحة، ظهرت بدعته فى ترمذ^(١) وتبعه خلق كثير، ثم قتله سالم بن أحوز المازنى بمرور^(٢) سنة ١٢٨ هـ لخروجه مع الحارث بن سريج على نصر بن سيار وإلى خراسان من قبل مروان بن محمد، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق^(٣).

— ٤ —

منى فتمس الناس بالقدر ؟

تكلم الناس فى القدر فى حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما بينا آنفاً من دخول كثيرين من أهل الأديان والنحل فى الإسلام، وتسرب طائفة من آرائهم إلى المسلمين، ولما ورد فى القرآن الكريم من آى يؤهم بعضها أن الإنسان مجبور على أعماله لآخرية له ولا إرادة، كقوله تعالى: «والله خلقكم وما تعملون»، وقوله تعالى: «قل كل من عند الله»، وقوله عز وجل: «ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون»، ولما

(١) مدينة على نهر جيحون من الجانب الشرقى، وهى بكسر التاء والميم، وفتح التاء وكسر الميم، وبضم التاء والميم، وفيها لغات أخرى (معجم البلدان لياقوت، والقاموس المحيط)

(٢) قاعدة بلاد خراسان قديماً على نهر مرغاب، فتحها الاحنف بن قيس فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفيها بويغ بالخلافة المامون العباسى سنة ١٩٨ هـ

(٣) أخذ جهم القول الذى نسب إليه عن الجعد بن درهم الآتى ذكره.

ورد من آي أخرى يوم ظاهرها أن للإنسان اختياراً وكسباً كقوله تعالى :
 « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، وقوله تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن
 شاء فليكفر ، ولذلك عرض (صلى الله عليه وسلم) للقدر وقال : « إذا ذكر القدر
 فأمسكوا ، وقال : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر ... » إلى آخر الحديث السابق
 ولم ينكر القدر في زمانه (صلى الله عليه وسلم) منكر ، وإنما تنطع الناس في فهمه
 وجعلوا ما يرتكبون من آثام عليه قائلين قدر الله وقضاؤه ساقانا ، ولذلك
 قال عليه السلام : « القدرية مجوس هذه الأمة ، وعنى بذلك الذين يتعللون
 بالقدر ويحملون ما يقارفون من موبق عليه ، وكذلك لم ينكر القدر في عهد
 الخلفاء الراشدين منكر ^(١) وإنما تعلل الناس به وأكثروا من الكلام فيه ، فدافعهم
 عمر بصرامته . وعلى بيلاغته ، ورد عليهم جمع من الصحابة : كعبد الله بن عباس ،
 وعبد الله بن عمر ، والحسن بن علي ، ووائل بن الأسقع ^(٢) . وما زالت نار الجدل
 تستعر بين بقية الصحابة والتابعين . وبين هؤلاء وأشباههم ، إلى أن ظهر منكر
 القدر والقائلون بالجبر الذين ألمعنا اليهم سابقا في خلافة بني أمية ، فناظرهم بعض
 الخلفاء والعلماء : كعمر بن عبد العزيز ، والأوزاعي ^(٣) ، وميمون بن مهران ^(٤)
 وأخذهم بعض الخلفاء والأمراء بذنوبهم كهشام بن عبد الملك والحجاج وسالم
 ابن أحوز ؛ وكان قتل معظم من قتل من القدرية والجبرية قتلا سياسيا لأنهم كما
 شذوا في المقالات الدينية شذوا في الآراء السياسية ، وبعد هشام كان من خلفاء
 بني أمية الضعيف المتهافت على اللذات ومنهم من يرى القدر ، كيزيد بن الوليد
 ابن عبد الملك بن مروان الملقب بالناقص الذي كان من دعائه عمرو بن عبيد
 الآتي ذكره ، وكروان بن محمد الملقب بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم أستاذه

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٢) المصدر عينه

(٣) سرح العيون ص ٥٢ هامش الفيت المسجم للصفدي

(٤) كان من عمال عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ ثم عمل لهشام ابن

عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ

في القول بالقدر^(١) فتحركت الألسنة بانكار القدر، وشاع في الناس حتى أصبح أصلاً من أصول مذهب المعتزلة الذي ذر قرنه في أواخر هذا العصر أيضاً وهضم مذهب القدريّة أو كانه، وناهض مذهب الجبرية في أطراف الأرض ويستنبط مما تقدم نتائج: الأولى: إن منكرى القدر والقائلين بالجبر أو المعطلة، وهم جهم وأتباعه، ظهوروا في عصر بني أمية.

الثانية: إن حركتهم نوهضت بالمناظرة ثم بقتل زعمائهم قتلا سيه سوء المقالة وسوء الرأي السياسي، وإن معظم دعاة المذهبين من أولاد الموالى والسبايا، وهذا يؤيد ما ذكرنا آنفاً من أن مذهباً السبيل للقول في القدر تسرب آراء الداخلين في الإسلام إلى أذهان المسلمين.

الثالثة: إن سيل القدر سال في العراق وهي أصله، ثم سال في الشام وسال قليل منه في الحجاز^(٢)، وإن مذهب الجبرية نشأ في الكوفة بالعراق، ثم جرى

(١) في صفحة ٥٥ من سرح العيون لابن نباتة هامش الغيث المسجّم ما يأتي: (أما الجعد فهو ابن درهم مولى بني الحكم، وكان يسكن دمشق ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فنسب إليه وقيل مروان الجعدي، والجعد أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق، ثم طلب فهرب، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي نسب إليه الجهمية، وقيل إن الجعد أخذ ذلك عن أبان بن سميان، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودي، وكان طالوت زنديقا يقول بخلق القرآن، وهو أول من صنف في الزندقة، فأظهر الجعد مصنفاته، فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالكوفة. قال ابن نباتة: قال خالد بعد أن صلى في آخر خطبته: (انصرفوا وضحوا بضحاياكم يقبل الله منا ومنكم، فأني أريد اليوم أن أضحي بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليماً، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً. تعالى الله عما يقول علواً كبيراً، ثم نزل وحز رأسه بالسكين بيده) وكان خالد بن عبد الله عاملاً لهشام بن عبد الملك على العراقين بعد ابن هبيرة

(٢) يقول ابن تيمية: ويقال أول ما حدث — يعني القدر — في الحجاز لما احترقت الكعبة، فقال رجل: احترقت بقدر الله تعالى، فقال آخر: لم يقدر الله هذا
«الإيمان صفحة ١٥٦»

نهره في خراسان بانتقال جهنم إليها بعد أن وقفه الجمد على أصول المذهب في الكوفة .
الرابعة : إن مذهبي القدرية والجبرية التقيا في القول بنفي صفات الله وفي القول بخلق القرآن .

— ٥ —

المعتزلة :

ومن أعظم الفرق الإسلامية التي ورثت عقلية المسلمين أثراً واضحاً ، المعتزلة أو أهل العدل والتوحيد ، ويسمون القدرية لقولهم في القدر مقال أصحاب معبد ، والجبرية لأنهم وافقوا أصحاب جهنم في القول بنفي صفات الله تعالى وخلق القرآن ، وبجمل ما ذهب إليه المعتزلة أصول خمسة تعتبر أصل مذهبهم ، ثم استقل كثير من زعمائهم بتعاليم عرفها وعزيت إليه ، أما التعاليم الأولى فهي :
أولاً : التوحيد ، ومعناه إنكار أن يكون لله تعالى صفات قديمة : كالعلم ، والقدرة . والحياة بحجة أنها لو كانت قديمة للزم تعدد القديم ، وإنكار أن يكون لله تعالى صفات السمع والبصر والكلام لأنها من عوارض الأجسام .

ثانياً : القول بالمنزلة بين المنزلتين في أمر مرتكب الكبيرة ؛ أي أنه ليس كافراً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير فيه ؛ وليس مؤمناً ، لأن الإيمان خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً . وهي لم تجتمع لمرتكب الكبيرة بارتكابها ، وإذا لم يكن مؤمناً ولا كافراً فهو بينهما ، أي فاسق مستحق للنار بما فسق .

ثالثاً : العدل أو القول بـ إنكار القدر ، ومعناه أن الله تعالى لا يحب الفساد ، ولا يريد الشر ، وأن أفعال الإنسان من خير أو شر من كسبه هو لا من صنع الله وتقديره ، ولذلك يعاقب الكاسب على أفعال الشر ، ويثاب على أفعال الخير ، ولما كان الله تعالى لا يريد بالإنسان شراً كان عادلاً .

رابعاً : الوعد والوعيد ، ومعناها أن الله تعالى لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، فإذا مات قبلها فهو مخلد في النار ، وأنه عز وجل يثيب المؤمن إذا فارق الدنيا على طاعته واستقامته

خامساً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعناها أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً على سائر المؤمنين، كل على حسب استطاعته ولو أدى ذلك إلى سلب السيوف من أغمادها. وأشهر رجال هذه الفرقة بل ذوائبها، واصل ابن عطاء المولود بمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سنة ٨٠ هـ، وكان يختلف إلى مجلس الحسن البصري مقرر مذهب الجماعة في مسجد البصرة وبأخذ عنه، ثم خالفه في أمر مرتكب الكبيرة، وقد كان الخوارج^(١) يرون أنه كافر، والجماعة يرون أنه مؤمن فاسق، وصرح واصل في مجلس الحسن بأنه بين كما تقدم، فتحاه الحسن عن مجلسه، أو هو الذي اعتزل مجلس الحسن لما رأى من الكراهة في وجهه، واتخذ له مكاناً آخر في المسجد مع فريق من زملائه الآخذين عن الحسن أولاً؛ فسموا المعتزلة لذلك، ولأسباب أخرى يذكرها مؤرخو الفرق، ثم أطلق هذا الاسم على كل من سار في محيط الأصول الخمسة، وعلى كل من وافقهم في أصل وبني عليه على حسب اجتهاده فروعاً أو أضاف إليه أصولاً من عنده، وسميت الفرق المشتقة بأسماء زعمائها ونسبت إليهم^(٢)

وتبع واصل في مذهبه عمرو بن عبيد الذي المعنا في كلامنا آنفاً إلى أنه كان من دعاة يزيد الناقص، وكان واصل مشهوراً بالفضل والبيان، وعمرو مشهوراً بالزهد والورع، أحبه الخليفة أبو جعفر المنصور وعرض عليه الجليل من

(١) الخوارج أو الشراة هم الذين ألحوا على علي (عليه السلام) في حرب صفين على نهر الفرات شرق حلب، أن يخضع لما طلبه معاوية من وقف القتال بعد أن رفع رجاله المصاحف على رؤوس الرماح، فلما اجتمع الحكان وغدز عمرو بن العاص بأبي موسى الأشعري، عاد هؤلاء الذين أرغموه أولاً على الرضا بوقف الحرب والتحكيم يطلبون إليه أن يستغفر ذنبه لأنه حكم الرجال، وتوعده إن لم يتب أن يخرجوا عليه، فلما أبى حقوا ما توعدها، فسموا الخوارج لذلك ولأسباب أخرى ادعوا: اقرأ تاريخهم وأدبهم في كتب الفرق والتاريخ

(٢) كالمذيلية بعد الواسلية، والكالنظامية، والمعمرية، والبشرية، والثامية، والمحاظية، والمخاطية، والجباية، وغيرها.

الاعمال فرغب عنها زهداً ، ورثاه لما مات بآيات تدل على عظمة المرتضى ووفاء الرائي .
وكلا الرجلين ، واصل وعمر و من أبناء الموالى ، ولد الأول بمدينة رسول الله
سنة ٨٠ هـ وتوفى فى مستهل الثلث الثانى من المائة الثانية ، وتوفى الثانى سنة ١٤٤ هـ ،
وجده رباب كان مولى لبنى تميم ، وكان لكليهما تلاميذ وأولياء مقدمون نهجوا
نهجها ، وآخرون زادوا عليها بما درسوا من فلسفة اليونان ومنطقهم بعد ترجمة
الكتب فى فجر العصر العباسى الأول ، ليفلوا الحديد بالحديد ، إذ كان قد دخل فى
الإسلام أناس لم يعرفوا منه غير اسمه ، من أبناء النصارى واليهود والمجوس
والدهريين ، درسوا الفلسفة والمنطق ، وأثاروا فى الإسلام جدلاً حول مسائل
كانت تثار فى أديانهم ، وكان هناك غيرهم ممن لم يسلبوا أكثر منهم إذاعة لمقالات
السوء ، وكان من الملاحدة والزنادقة الكثيرين الذين يظهرون الإسلام خوفاً
وأستدراراً للرزق ويطنون الكيد له والزراية به - كطبيع بن إياس ، وحماد
الراوية . وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الله بن المقفع - من يقول بالتناسخ
ويترجم كتباً فى الإلحاد ، وكان هناك الجبرية أهل التعطيل ، وأهل الحديث
الذين يجدون على المعتزلة ، وينقضون أسس مذهبهم ، وكان هنالك غير هؤلاء
من الحاقدين على المعتزلة والمخالفين استندوا إلى أسباب جعلوها ذرائع للطعن
عليهم : كاشتغالهم بالفلسفة ، وكاحتكامهم بالخلفاء : المأمون ، والمعتصم ، والواثق ؛
وكسلهم طريق العنف فى معاملة خصومهم ، وإذاقتهم صنوف العذاب (١)

- ٦ -

قاوم المعتزلة هؤلاء جميعاً ، وتأثروا أهل البدع فى أطراف الأرض ، وكتبوا
المقالات المستفيضة ، وزانوا المجالس بالمحاضرات ، وعمرُوا المساجد بالمناظرات ،
وصادف تحديهم الملاحدة والزنادقة هوى فى نفس المهدي وابنه موسى الهادى
الذين نكلا بالزنادقة ومن نزع إليهم ، وصادف أن حبا الخلفاء الثلاثة الذين
ذكرنا أنفاً المعتزلة بعطفهم ، وفتحوا لهم فى مجالسهم ، ومكنوهم من خصومهم

(١) راجع صفحات ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦

من محاضرات الدولة العباسية ، وللخضرى بك ،

فظهرت بذلك كله أول نواة من أنوار علم الكلام الذى يعتبر ثمرة من ثمار جدلهم ، وتجردوا لوضع مسأله وتوضيحها ، ثم أخذ كل فريق من المشتغلين بالنقاش فيه ينحو به منحى ميوله واعتقاده ، إلى أن أصبح ثابت البنان ، راسخ الدعائم ، على يدى زعيم أهل السنة والجماعة أبى الحسن الأشعري بعد أن جرد نفسه من ثوب الاعتزال كما سيجى .

ومن أشهر علماء المعتزلة غير واصل وعمر بن عبيد ، عثمان بن خالد الطويل ، أستاذ أبى الهذيل العلاف . وحفص بن سالم ، والحسن بن ذكوان ، وخالد بن صفوان ، وإبراهيم المدنى ، ومن هؤلاء من عاش فى الدولتين الأموية والعباسية ثم أبو الهذيل العلاف ، وأبو بكر الأصم ، ومعر بن عباد ، وإبراهيم بن سيار النظام ، والجاحظ ، وأبو يعقوب الشحام ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة بن أشرس ومعظم هؤلاء درسوا الفلسفة والمنطق فى العصر العباسى الأول ، وكان لكثير منهم تعاليم خاصة وتلاميذ وأولياء .

ومن مشهورهم أيضاً موسى بن عمران ، وأحمد بن حائط ، وأحمد بن أيوب بن مانوس ، وعيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى المزداد ، وأبو الحسين الحياط ، وأحمد بن أبى دؤاد القاضى ، وأبو على الجبائى شيخ الأشعري وقد كان المعتزلة مجدودين فى عهد خلفاء بنى العباس الأوالى إلى زمن جعفر المتوكل الذى رفع المحنة

— ٧ —

أبو شاعرة :

ومن الفرق الإسلامية العظيمة التى رعت علم الكلام فى مهده وأعلت نياه وفصلت مسأله : الأشاعرة أو أهل السنة والجماعة ، وزعيمهم وواضع مذهبهم شيخ المتكلمين وذو آبتهم غير منازع أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ والمتوفى سنة ٣٢٤ هـ . وكان أول أمره تليذاً لأبى على الجبائى من شيوخ المعتزلة المتوفى سنة ٣٠٣ هـ لأنه ختنه ، ثم خلع عن

نفسه ثوب الاعتزال بعد أن هداه البحث في السنة ومذاهب المتكلمين إلى أن يسلك طريقاً وسطاً معقولاً بين المذاهب المختلفة التي كثر في بعضها التنطع؛ وألف الكتب في الرد على المعتزلة الذين يتفون صفات الله ، وعلى الجهمية المعطلين وشركاء المعتزلة في نفي الصفات ، وعلى مشبهة الذات الذين أمعنوا في التشبيه حتى اعتقدوا العين واليد ، ومشبهة الصفات الذين أسرقوا فأثبتوا الجهة والصوت — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — وعلى غير هؤلاء من أهل البدع والضلالات التي كانت فاشية في عصره ؛ ونصب له هؤلاء جميعاً ولا سيما المعتزلة — لأنه في الأصل منهم — فقمعهم بالحجة وقطعهم بالبرهان وأخاق جده مذهبهم فقتله جماعة منهم ، وقرأ كتبه المحدثون والفقهاء من أهل السنة وأخذوا بما فيها واعتبروه إماماً حتى نسب مذهبهم إليه ، وتبعه سواهم ، وما زال مذهب الأشعري يغزو المذاهب الأخرى فيزعمها مذهباً إثر مذهب حتى ساد وطبق معظم الآفاق ، وعليه جبهة المسلمين إلى هذا الوقت .

ومن أشهر رجال هذا المذهب القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، والأستاذ أبو بكر بن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وأبو الحسن البصري الأشعري النعيمي الأديب المتوفى سنة ٤٢٣ هـ ، وإمام الحرمين أبو المعالي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، وأبو القاسم القشيري المتكلم المتصوف السني المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، والشيخ عبد القاهر الجرجاني المتكلم السني النحوي الأديب المتوفى سنة ٤٧٤ هـ ، وأبو الفتح الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، والغزالي أبو حامد المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، والفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وقبل أولئك جميعاً القفال الشاشي الكبير الأديب المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ، راجع طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي .

— ٨ —

علم الكلام ماهو ؟ :

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين عن مذهب السلف وأهل السنة في الاعتقاد^(١) ، ويسمى علم التوحيد

لأن من أمهات مسائله إثبات الوحدة لله تعالى في ذاته ، وفعله ، وخلقه ألا كوان ؛ ويتضمن أيضا البحث عن وجود الله تعالى وما يجب له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه ، وما يجب للرسل عليهم السلام من صفات ، وما يجوز أن يوصفوا به وما يجب أن ينفي عنهم ، والغرض من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله تصديقا تطمئن به النفس ، استنادا إلى الدليل على وفق ما أرشد إليه الكتاب الكريم الذي أمرنا باستخدام النظر الفاحص ، واستخدام العقل فيما بين ظهرانينا من ظواهر الكون .

وكما يسمى هذا العلم علم الكلام وعلم التوحيد ، يسمى الفقه الأكبر^(١) وأصول الدين ، لأن الأصول - وهي معرفة الله تعالى بوحديته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم ، ومعرفة كل مسألة يتعين فيها الحق بين المتخاصمين - موضوع علم الكلام عند المتكلمين ، وقد عده الفارابي من العلوم العملية^(٢) وعده ابن سينا من العلوم النظرية^(٣) وإنما سمي علم الكلام لأن أشهر مسألة استحر فيها الجدل بين العلماء الأوالي كانت مسألة كلام الله تعالى : أحادث هو أم قديم ؟ أو لأن مني هذا العلم الدليل العقلي الذي يظهر أثره في كلام كل متكلم ، أو لأنه في الكشف عن طرق الاستدلال على أصول الدين يشبه المنطق في كشفه عن طرق الحجة .

(١) سماه بذلك أبو حنيفة

(٢) إحصاء العلوم للفارابي

(٣) منطق المشرقيين لابن سينا . ويفرقون بين العلوم العملية والنظرية بأن الأولى

لا ترمى إلى حصول الاعتقاد اليقيني بالموجودات ، وإنما المقصود منها الحصول على أمر صحيح في شأن يحدث بكسب الإنسان ليفيد منه الخير ؛ وأن الثانية ترمى إلى الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان ، والغرض منها حصول رأى فقط .

- ٩ -

أثر علم الكلام في الأدب بمعنى العام والخاص :

إذا استقرينا طبقات المتكلمين على اختلاف مذاهبهم وجدنا جمهورهم من فحول البلاغة وأساطين الأدب وملوك الكلام، لأن صناعتهم صناعة جدل وحاجة؛ قوامها قوة البيان، وأداتها ذلاقة اللسان وإقامة البرهان؛ ووجدنا أكثرهم بعد ترجمة الكتب في أوائل العصر العباسي درسوا الفلسفة والمنطق ليجمعوا إلى الثقافة الإسلامية البحث ثقافة جديدة اقتضتها الضرورة، إذ كان معظم خصوم الإسلام على نحو ما وصفنا في عدة مواضع سابقة. ولذلك لم يكن غريباً أن نرى القاضي أبا بكر الباقلاني المتكلم السني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ يفترض فيمن يقرأ كتابه «إعجاز القرآن» أن يكون بالأدب عارفاً وبمسائله محيطاً، فيقول: «ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمزنا ببيانته وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً، وعن وجه اللسان غافلاً، لأن ذلك مما لا سبيل إليه إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه بما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه الخ».

(١) أثر المتكلمين في الأدب عن معنى البلاغة والأدب :

قال الجاحظ في البيان والتبيين صفحة ٦٣ جزء أول طبع مطبعة الفتوح: «قيل لعمر بن عبيد: ما البلاغة؟ فقال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار؛ وما بصر بك مواقع رشدك وعواقب غيك». قال السائل: ليس هذا أريد! قال عمرو: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال السائل: ليس هذا أريد. قال عمرو بعد حوار: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن الإفهام: قال السائل: نعم. قال عمرو: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين، وتخفيف المثونة على المستمعين، وتزوين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالالفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة

على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب . وقد شرح عمرو في هذا الجواب ما كان يعنى به المتكلمون من تحبير اللفظ وحسن إفهام ، ومن بحث طرق ذلك ، ولم تكن هذه الطرق إلا البلاغة وكما يحدثنا الجاحظ عن شرح ابن عبيد لمعنى البلاغة ، يحدثنا في صفحة ٧٥ وما بعدها من الجزء عنه فيقول : إن بشر بن المعتمر أحد علماء المعتزلة ، مر بإبراهيم ابن جبلة السكوني الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليفيد أو ليكون رجلاً من النظارة ، ولكن بشراً قال مخاطباً الفتيان : « اضربوا عما قال صفحاً ، واطوروا عنه كشحاً ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتسميحه وكان ذلك أول الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الاستماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع الخ ،

قال الجاحظ : « قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لي : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان . » اقرأ الصحيفة في صفحات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ من البيان ، ومنها تعرف أن بشراً كان إلى ناحيته الكلامية أديباً عارفاً أسرار البلاغة ملماً بما يجب على الأديب من تحبير اللفظ ، وتقريب المعنى من الأفهام ، ومن جعل الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، ومن اختيار الأوقات المستحبة إلى أشباه ذلك من القواعد والأصول التي لا يدركها إلا حذاق الأدب .

ويحدثنا الجاحظ أيضاً في صفحة ٦١ من الجزء عنه واصفاً أدب ثمامة بن أشرس المتكلم المعتزلي تعليقاً على وصف ثمامة لأدب جعفر بن يحيى البرمكي فيقول : « وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ، كان ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره . وما علمت أنه كان في زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف - ما كان بلغه ، وكان لفظه في وزن

إشارته ، ومعناه في طَبْعَةِ لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال بعض الكتاب : معاني ثمانية الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه كما وصف الحزبي شعر نفسه في مدح أبي دلف حيث يقول :

ولى كـلم وفـيك معقوله إزاء القلوب كركب وقوف ،

أما وصف ثمانية لبلاغة جعفر فقوله في صفحة ٥٨ من الجزء عينه : « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ؛ قد جمع الهدوء والتحمل ، والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة ، لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ،

هذه الكلمات الأربع التي أوردنا لعمر بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وثمانية ابن أشرس . والجاحظ ؛ تصور لك مبلغ إلمامهم بقواعد الأدب وأصوله ، وبأن البليغ عندهم كما هو عند الأصمعي ، من طبق المفصل وأغناك عن المفسر ،

(٢) آثار المتكلمين في أصل اللغات

يحدثنا الإمام ابن تيمية المتوفى في الربع الأول من القرن السابع في كتابه « الإيمان ، صفحة ٣٦ طبع مطبعة السعادة عن اللغات ، وهل هي توقيفية أو اصطلاحية ، فيثبت أن الكلام في هذه المسألة أثاره المتكلمون قبل كل إنسان . وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبي هاشم بن الجبائي ، ثم يقول : « فتنازع أبو الحسن الأشعري . وأبو هاشم الجبائي في مبدأ اللغات ، فقال أبو هاشم : هي اصطلاحية ، وقال الأشعري : هي توقيفية ، ثم خاض الناس بعدهما في هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفي وبعضها اصطلاحى ، وقال فريق رابع بالوقف ،

وهذا يدل على أن المتكلمين عالجوا الأدب من أساسه الأول ، فقد درج علماءه على أن يتناولوا بالبحث والتمحيص مسألة اللغات ونشأتها على نحو الحوار الذي كان بين الأشعري وابن الجبائي .

(٣) أثر المتكلمين فى علم البهرغ : المتكلمون واضعو هذا العلم :

جر الكلام فى إعجاز القرآن ومعنى الإيمان والإسلام والإحسان بين المتكلمين من المعتزلة وأهل السنة وغيرهم إلى الكلام فى البلاغة ومعنى الحقيقة والمجاز وما يدلان عليه ، وتقسم الحقيقة إلى عرفية ولغوية وشرعية ، فكان المتكلمون بذلك أول الواضعين لعلم البلاغة ، وهذا ابن تيمية يتحدثنا فى كتابه الإيمان صفحة ٣٤ وما بعدها : « فصل فى أن دلالة الإيمان على الأعمال حقيقة لا مجاز ، فيقول : « فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى ، ولم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم : كمالك ، والثورى ، والأوزاعى ، وأبى حنيفة ، والشافعى ؛ بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو : كالخليل ، وسيبويه ، وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم . وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز القرآن ما يُعَبَّرُ به عن الآية ، ثم يقول بعد كلام قصير : « ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلماؤها وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان

من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين الخ »

وفى الحق أن ابن تيمية لم يلق القول على عواهنه وهو الثقة ، فإننا إذا عرضنا لواضعى هذا العلم ورافعى قواعده وجدناهم جميعاً من المتكلمين ، ومن بينهم عدد غير قليل ممن درسوا الفلسفة والمنطق ، وخططوا مسائل البلاغة بمسائلهما ؛ فالجاحظ وهو من رموس المتكلمين قد أشار إلى مسائل من علم المعانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ وضع ثلاثة عشر نوعاً من البديع فى كتابه نقد الشعر الذى سماه « نقد قدامة » ، والإمام عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ أول من خلص مسائلها المبعثرة ووضع كتابه « دلائل الإعجاز » ، « وأسرار البلاغة » ، وهو فى الأول متكلم فيلسوف

يسوق الكلام على طريق أهل الجدل ، وفي الثاني أميل ما يكون إلى الأدب
الصرف لانصرافه عن الكلام في الإيجاز إلى اللهجة الأدبية البحتة التي تتمثل في
سوق الشواهد الكثيرة من فصيح الشعر والنثر وبيان ما فيها من أنواع البلاغة
على النحو المعروف في دروس البلاغة الآن .

وأبو القاسم محمود الزمخشري المتكلم المعتزلي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ألف تفسيره
«الكشاف» ، وكشف في أثناء كلامه عن كثير من قواعد البلاغة ، وقال من
كلام في خطبة هذا الكتاب : « والواعظ وإن كان من الحسن البصري أو عظماء
والنحوى وإن كان أنحى من سيديوه ، واللغوى وإن علمك اللغات بقوة لحيته
لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطريق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ،
إلا رجل قد برع في علين مختصين بالقرآن : وهما علم المعاني ، وعلم البيان ،
وتمهّل في ارتيادهما آتونه وتعب في التنقير عنهما أزمته الخ ،

وأبو يعقوب السكاكي المتكلم المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ألف كتابه «مفتاح العلوم»
ومزج أساليبه بكثير من أساليب الفلسفة والمنطق لتمكنه منها .
وعن هؤلاء الأئمة الذين وضعوا علوم البلاغة ثم جردوا مسائلها ، أخذ من
جامعوا بعدهم ونحووا نحوه

(٤) أثر المتكلمين في لغة الأدب

انساب طائفة غير قليلة من مصطلحات المتكلمين في محيط الأدب العربي ، قد
يكون أثرى بها من جهة أنها دالة على معان مقصودة لهم لم يجدوا ما يؤيدها سواها ،
وقد يكون وجه الأدب أربد بها من جهة أخرى لأن معظمها دخیل على اللغة شق
طريقه إليها من الفلسفة والمنطق : كالكم ، والكيف ، والآن ، والمتى ، والأزل ،
والعرض ، والجوهر ، والحجة ، والبرهان ، والاعتقاد ، والحدوث ، والعدم ،
والقطع ، والقمع ، والكسب ، والاختيار ، والجبر ، والتعطيل ، والشك ، واليقين ،
والقضاء ، والقدر ، والعلة ، والمعلول ، والسبب ، والمسبب ، والأصول ، والفروع ،
والحق ، والباطل ، والغلبة ، والخذلان ، والواجب ، والجائز ، والممكن ، والمستحيل ،
والقدم ، والبقاء ، إلى أشباه ذلك مما يجده في نثرهم ونظمهم ، كقول الجاحظ في رسالته

«القيان» : أما بعد فإنه ليس كل صامت عن حجته مُبطلاً فى اعتقاده ، ولا كل ناطق بها لا برهان له محققاً فى انتحاله ، والحاكمُ العادلُ من لم يجعل بفصل القضاء دون استقصاء حجج الخصماء ، ودون أن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضى الخصمين فى بيان ما اختصما فيه حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه ... وقد كنا نمسكين عن القول بحجتنا فيما تضمنه كتابنا هذا ، اقتصاراً على أن الحق متكفل بظهوره ، مُبين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره ، إذ كان إنما يستدل بباطن على ظاهر ، وعلى الجوهر بالعرض ، «إن الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها ، والأعجاز لاحقة بصدورها ، والموالى تبع لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكله ، ومنفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض : كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة ؛ وكالحب علة الزرع والزرع علة الحب ؛ والدجاجة علة البيضة ، والبيضة علة الدجاجة الخ ، وكقوله فى أول رسالته «ذم أخلاق الكتاب ، بعد الديباجة :

«ومتى وقع الوصف من القائل تقصياً ، والنعت من الواصف تأتقاً ، قل شهادته ، وكثر خصماؤه ، لأن أغلظ المحن ماعرض على المشهور فأزاله ، وتصفحه المعقول فأحاله ، وأضعف العلل ما التمس بعد المعلول ،

وكقول النظام يمدحه - ويدعى الجاحظ عمراً ، ويكنى بأبى عثمان :

حي لعمر و جوهر ثابت وجبه لي عرض زائل

به جهاتي الست مشغولة وهو إلى غيرى بها مائل

وكقول أبى القاسم القشيري المتكلم السنى الصوفى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

يا من تقاصر شكرى عن أبياده وكلّ كلّ لسانى عن معاليه

ووجوده لم يزل فرداً بلا شبه علا عن الوقت ماضيه وآتیه

لا دهر يُخلّقه ، لا قهر يلحقه لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه

لا عدّ يجمعه ، لا ضدّ يمنعه لاحدّ يقطعه ، لا قطر يحويه

لا كون يحضره ، لا عين تبصره وليس فى الوهم معلوم يضاهيه

جلاله أزل لا زوال له وملكه دائم لا شئ يُفنيه

(٥) أثر المنكلمين في المؤلفات العلمية :

وكذلك شاعت في المؤلفات العلمية التي وضعها المتكلمون طائفة من ألفاظهم الاصطلاحية ، وأكثر ما كان ذلك في مقدمات هذه الكتب : كقول الزمخشري في أول كتابه ، الكشف ، : « فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم ، أنشأ كتاباً ساطعاً تبياناً ، قاطعاً برهانه ، وحياً ناطقاً ببيانات وحجج . قرآناً عربياً غير ذى عوج ، مفتاحاً للنافع الدينية والدنيوية ، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان . أغم به من طول بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تحدى من مصافع الخطباء . » وكقول الجرجاني في مقدمة كتابه « أسرار البلاغة ، وقد مزج كلامه مزجاً صريحاً باصطلاحات المناطق والفلاسفة : « فلو لا الكلام لم تكن لتعدى فوائد العلم عالمه ، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزهير العقل كائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية في موجودها وفانيتها ؛ نعم ، ولو وقع الحي الحساس في مرتبة الجماد ، ولكن الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعاني مسجونة في مواضعها ، ولصارت القرائع عن تصرفها معقولة ، والأذهان عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان . » وكقوله وقد أمعن في تقسيم أبواب الفن ومضى يشرح المسائل في باب التشبيه ويسرف في الإلزام بألفاظ أهل المنطق والفلسفة : « إن قال قائل إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزلة الوجود ليس من حديث التشبيه في شيء ، لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معاني ذلك ، أو حكماً من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، في أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء ؛ وإذا قلت في الرجل القليل المعاني : هو معدوم ، أو هو والعدم سواء ؛ فلست تأخذ له شبهاً من شيء ، ولكنك تنفيه وتبطل وجوده ؛ كما أنك إذا قلت : ليس هو بشيء ، أو ليس برجل كان كذلك ،

(٦) أثر المتكلمين في النقد :

وقد كان للمتكلمين أثر كبير ، خالده في نقد الكلام والكشف عن محاسنه ومساوئه حين عرضوا للكلام في إيجاز القرآن وأفوا فيه الكتب . وحين عرضوا للبلاغة ودونوها ، وإن حملت كتبهم أسماء أخرى غير النقد ؛ اقرأ للإمام أبي بكر الباقلاني في كتابه ، إيجاز القرآن ، تعليقه على قول امرئ القيس :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسميا لما نسجتها من جنوب وشمال
تر أنه إلى إمامته الكلامية إمام في الأدب والنقد ، يعرف كيف يميز الخبيث من الطيب ويرك أسرار البلاغة في الكلام إدراكا تتقطع دونه أنفاس البلغاء : قال في صفحة ٧٥ : الذين يتعصبون له (امرئ القيس) أو يدعون محاسن الشعر ، يقولون : هذا من البديع ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب . وتوجع واسترجع في بيت ، ونحو ذلك . وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت ، أو غفلتنا عن مواضع الصناعات إن وجدت ؛ تأمل أرشدك الله ، وانظر هداك الله : أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا ، ولا تقدم به صانعا ، وفي لفظه ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكي لذكر الحبيب ، وذكره لا يقتضى بكاء الخليلي ؛ وإنما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا ، على أن يبكي لبكائه ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فاما أن يبكي على حبيب صديقه وعشيق رفيقه ، فأمر محال ؛ فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا ، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغاؤل عليه والتواجد معه فيه . ثم في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأما كن : من الدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة ، وسقط اللوى ؛ وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا ؛ وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من العي . ثم أن قوله - لم يعف رسميا - ذكر الاصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن

على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا ، وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفا الرسوم إلا جدة عهد وشدة وجد الخ ، وقال في صفحة ٧٦ تعليقا على قوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا تضرع المسك منهما نسيم الصبأ يأتي بريتا القرنفل
، أنت لاتشك في أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ؛ وأما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله : تضرع المسك منهما ؛ ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال ، فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير . ثم فيه خلل آخر ، لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص ؛ وقوله : نسيم الصبا . في تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله ،

وقد لبس الباقلائي في نقده ثوب الأديب الدخال ، ولم يستخدم من ألفاظ المتكلمين سوى : أنت لاتشك ، مثلا ، ، وأنت تعرف ، ، ، وهداك الله وأرشدك ، وقرأ للإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه ، دلائل الإعجاز ، ص ٢٨٣ طبع المنار تعليقه على قول أبي الطيب من قصيدته اللامية في رثاء أخت سيف الدولة

وما تأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير نحر للهِلال
تر أنه إلى إمامته في الكلام والبلاغة إمام في النقد ، ولا بدع ، فلولا النقد ما كانت البلاغة ؛ قال بعد كلام طويل : ، واعلم أن هذا هو الصحيح في تفسير البيت ، والطريقة المستقيمة في الموازنة بين تأنيث الخلقه وتأنيث الاسم ، لا أن يقال إن المعنى : أن المرأة إذا كانت في كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة ، كانت من حيث المعنى رجلا وإن عدت في الظاهر امرأة ؛ لأجل أنه يفسد من وجهين : أحدهما أنه قال : ، ولا التذكير نحر للهِلال ، ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : إن الهِلال وإن ذكر في لفظه فهو مؤنث في المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل

أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلاً لتأنيث المؤنثة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيراً ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهِلال . هذا بين التناقض .

(٧) ثروة المتكلمين الأدبية :

ترك المتكلمون تراثاً أدبياً كريماً يتمثل فى كتب البلاغة والنقد وإعجاز القرآن ، وما ألفوه فى معانيه وألفاظه ومجازه . وفى كتب الطبقات وما فيها من تاريخ أدبى تحليلى لكبار من حوتهم من الأعلام ؛ ذلك إلى الجانب العظيم المائل فى المناظرات التى أخفت صوت الخطابة فى الدولة العباسية ، وإلى أشعار أدبائهم التى كانت بين صور خالصة من الأدب المصنئ فى أغراض شتى وصور أخرى حوت مبادئهم ومذاهبهم ؛ وقد حوت كتب التاريخ الكبيرة ، وكتب الفرق ، وموسوعات الأدب ، شيئاً كثيراً من هذا التراث الجليل ، وسنمثل بعد ببعض الصور .

(٨) أثر المتكلمين فى الألفاظ ومفردات مفاهيمهم بها :

اضطر المتكلمون إلى خلق ألفاظ جديدة تعبر عما فى نفوسهم من معانٍ اقتضتها صناعة الجدل ، فقاضت أنهار مناظراتهم ومحاضراتهم بطائفة كبيرة من ألفاظ ربما أنكرها أهل اللغة أو لم يعرفوها ، أخذوها من العلوم التى درسوا كالفلسفة والمنطق وغيرهما ، فأضافوا بذلك ثروة جديدة إلى الألفاظ أحسنوا بها إلى اللغة ؛ ومهما يكن أصل هذه الألفاظ ، ومهما تكن قيمتها عند أهل اللغة ؛ فلا سبيل إلى إنكار أنها ثروة ومدد تحتاج إليه اللغة العربية ، إذ كان غناها فى الألفاظ لا يعدل غناها فى المعانى .

فأما مبلغ حقلهم فى مناظراتهم ومحاضراتهم بالألفاظ وتنميقها واختيارها ، فذلك ما تقرر أنه لم يكن يعينهم بقدر ما تعينهم المعانى يضعونها فى الألفاظ التى تواتبهم ، جزلت أو سهلت ، علت أو انخفضت ؛ وذلك لا يبدو غريباً من قوم كانوا يطلبون للكلام أو يطلبونه كلما عرض عارض أو اقضى مة متض .

(٩) أثرهم في المعاني والرسائل :

فأما أثر المتكلمين في المعاني فيبدو واضحاً في الغوص عليها وابتكارها ودقة الإشارة إليها ، وفي ترتيبها ترتيباً منطقياً ، وفي تقديم المقدمة بين يدي النتيجة ، وفي الفرق في الاستنباط ، وقد صار لهم ذلك ملكة بكثرة ما جادلوا واطلعوا في كتب الأوائل .

(١٠) نثرهم وشعرهم :

إذا وازن الأديب بين نثر المتكلمين وشعرهم تبين فرقاً بين الأول والثاني : فهم في الأول أرسخ قدماً ، وأعز جانباً ، وأكثر تراثاً ، وأعزر معنى ، وأشرف قصداً وبحسبهم أن يكون منهم إمام المنشئين وسيد المترسلين وشيخ الصناعة ، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ . وأن يكون منهم أبو الحسين ابن العميد شيخ الطريقة المعروفة باسمه في الكتابة ؛ وهذا لا يمنع من أن لشعرائهم شعراً في فنون مختلفة له روعة وفيه جمال .

• للبحث بقية •

محمد موسى عفيفي



بشر بن المعتز

بقلم من علوانه

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

علينا قبل أن نذكر شيئاً عن بشر بن المعتز، أن نلم إلماماً وجيزاً بطائفة المعتزلة، لأن بشراً إمام من أئمتها. فتمر مروراً سريعاً، على المبادئ العامة التي اشتركوا فيها، والمشاكل التي أثاروها وتعرضوا لحلها، ونعرف ما قامت عليه بيناتهم من السطوة العقلية، وقوة الجدل، وامتلاك ناصية البلاغة، وفهم أسرار الكلام، وتأثرهم بالفلسفة اليونانية، وتأثيرهم في سياسة الدولة العباسية زمنياً بعيداً، وجهادهم العنيف في الدعوة إلى آرائهم. وتقرير مذاهبهم، وإطلاق العقل من قيوده إلى أبعد حدوده، وحرية الرأي، ومقارعتهم خصومهم من أهل الفرق الأخرى في غير هواة ولا لين.

أما المعتزلة عامة فقد تناولوا القول في أصول خمسة: هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المتزاتين. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... فقالوا في التوحيد: إن الله (عز وجل) لا كالأشياء، وإنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر، ولا جزء، ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم، والعرض والعنصر، والجزء والجوهر، وإن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة، وإنه لا يحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد، وإنه الخالق للأشياء. المبدع لها لا من شيء، وإنه القديم، وإن ماسواه محدث^(١)، وأوضحوا معنى التوحيد في جلاء، وشرحوا قوله تعالى: «ليس كمثله شيء»، أقصى شرح وأعمقه، وأولوا كل الآيات الدالة على الجهة، وعلى الأعضاء، وعلى مشابهة المخلوقات^(٢)، مثل قوله تعالى: «الرحمن على العرش

(١) الجزء الثاني مروج الذهب صفحة ١٩٠ في أثناء الكلام عن يزيد الناقص

(٢) ضحى الاسلام الجزء الثالث صفحة ٢٦

استوى ، وقوله : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوَّتِهِمْ » ، وقوله : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ، تأويلاً ينزه الخالق جل شأنه ، عن مشابهته المخلوقات في شيء من العَرَضِ أو الجوهر ، وقد أدام ذلك إلى القول بأن صفات الله : من قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام ، هي وذاته شيء واحد ، أى أنها لا توجب شيئاً آخر غير الذات الواحدة ، وإذا كان الله وصفاته وحدة لا تقبل التغيير ، فحال أن يكون القرآن وهو الكلام الذى نقرؤه بالسنتنا ، ونسمعه بأذاننا ، كلام الله أى صفة من صفاته ، وانفقوا على أن سُورَةَ وآيَاتِهِ وحروفه قد خلقها الله ، وأوصلها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن طريق جبريل ، وهو ليس كاللِكْلام الذى ينسب إلينا ، وينشأ من عناننا . واستيقظت لهذا الرأى فتنة شغلت العقول ، وأثارت الجدل ، واستهوت الخليفة المأمون ، فأراق لحمايتها والدفاع عنها الدماء ، وعذب الأبرياء ، وشاعت في عصره وعصر المعتصم والوائق بعده ، وسميت بفتنة خلق القرآن ، وصاحبها : القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، ممن نشأ في العلم ، وتضلّع بعلم الكلام ، وصحب فيه هياج بن العلاء السلمي ، صاحب واصل بن عطاء ، أحد رؤساء المعتزلة ؛ وكان ابن أبي دؤاد رجلاً فصيحاً وكان معظماً عند أمير المؤمنين المأمون ، فدرس إليه القول بخلق القرآن وحسنه عنده ، فصار يعتقدُه حقاً مبيناً ، إلى أن أجمع رأيه في سنة ثمانى عشرة ومائتين هـ ، على الدعاء إليه . وأشخص إليه العلماء والفقهاء ومشايخ الحديث ، فمن أجاب نجا ، ومن امتنع عن الجواب قتل أو عُدِّب ، فقتل المأمون محمد بن نوح ، وعذب المعتصم أحمد بن حنبل ، وقتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعى ونعيم بن حماد ، (١)

وقالوا في العدل : « إن الله لا يحب الفساد » ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه ، بالقدرة التى جعلها الله لهم ، وركبها فيهم (٢) ، وقالوا : إن العبد قادر ، خالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً ، في

(١) عن مفتاح السعادة الجزء الثانى صفحة ٣٩

(٢) الجزء الثانى من مروج الذهب صفحة ١٩٠

الدار الآخرة، والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر. وظلم، وفعل هو كفر ومعصية، لأنه لو خلق الظالم كان ظلماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً، (١)
وقالوا في الوعد والوعيد: إن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأن من مات عن كبيرة استحق الخلود في النار، وأن المؤمن إذا مات طائعاً تاباً استحق الثواب والنعيم. وقالوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إنه من واجبات المؤمنين، كل على حسب استطاعته: بالسيف أو اللسان أو المال، وأن عليهم مجاهدة المسلم العاصي، والكافر على السواء.

وقد أرادوا، بالمنزلة بين المنزلتين، من يرتكب الكبائر من الذنوب، كمن يترك إقامة ركن من أركان الإسلام، أو يقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فقد أطلقوا عليه وعلى مثله اسم الفاسق، ولم يطلقوا عليه اسم المؤمن أو الكافر هذه المبادئ الخمسة هي الدستور العام للمعتزلة، ولا يستحق اسم الاعتزال إلا من اعتنقها، أما إذا زاد عليها من الفروع، كان معتزلياً منسوباً إلى طريقته، كالوإصلية، والبشرية، والنظامية، وهم أتباع واصل وبشر والنظام، لأنهم اعتنقوا المبادئ الخمسة، وزادوا في اعتناق الفروع التي قال بها إمام كل فرقة.

ولقد ثارت في علم الكلام مسائل، كالقضاء والقدر، والجبر والكسب في إرادة الخير والشر، والإيمان والتوبة، وشرائط الإمامة، وهل المرجع فيها إلى النص والإجماع؟ واحتكم المعتزلة فيها إلى العقل، وبسطوا سلطانه على النصوص المنزلة فأولوها على حسب ما يهدي إليه العقل، وتهيب مخالفوهم من الفرق الأخرى، أن ينازلوهم في ميدان الجدل، لقوة حججهم، وعمق فكرتهم، وشدة إخمائهم، حتى تحاشوهم، وأصبح فرسان حليلة المناظرة والجدل منهم دون سواهم، ورأوا، أن العقل البشري قد منح من السلطة والسعة، ما يمكنه من إقامة البرهان، حتى على ما يتعلق بالله... فلا زلل ولا خطأ عندهم متى صح البرهان، فلنستعمل البراهين. في أدق الأدوار وأصعبها وأعقدها،

(١) الجزء الأول صفحة ٥٥ من الملل والنحل للشهرستاني على هامش الجزء الأول

ففي استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها (١)، وقد لجوا في الجدل إلى أبعد حدوده، وأقاموا المناظرات، واستضاءوا كما قدمنا بنور العقل، وتزودوا بالمنطق، والبيان، ودرسوا الفلسفة اليونانية، وأحاطوا علماً بآراء الفرق المخالفة لهم، وبرعوا في فهم أسرار الكلام، والاحتجاج بمأثور القول على ما يعزز آراءهم، ويقوى حججهم، ويمكنهم من القيام بالدعوة للإسلام، والتغلب على المخالفين لهم.

أما قدرتهم على الجدل، فهي ثابتة لهم بشهادة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وهو كما تعلم من ذوى الرأي، والمتصيرين للعقل؛ قال: «كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام، ففضي دهر فيه أتردد. وبه أخاصم، وعنه أناضل، وكان أكثر أصحاب الخصومات بالبصرة، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة. أقيم ستة وأقل وأكثر، وكنت قد نازعت طبقات الخوارج من الأباضية وغيرهم وطبقات المعتزلة، وسائر طبقات أهل الأهواء، وكنت بحمد الله أغلبهم وأقهرهم، ولم يكن في طبقات أهل الأهواء أحد أجدل من المعتزلة» (٢).

وبالرغم من أن أبا حنيفة يحمده الله على أنه كان يتغلب على أهل الجدل، ويقهر أصحاب الخصومات، ويعترف بأن المعتزلة أجدل أهل الأهواء، فإنه على ما يظهر، كان يفهم أمامهم، ويضيق صدره بقوة حججهم، فيرميهم بقسوة القلوب، وغلظ الأفئدة، لأنهم لا يسيرون على سنن المتقدمين من التسليم بظاهر النصوص أو إغفال العقل، تحاشياً للخوض فيما يجرهم إليه الجدل من شبه ومشاكل؛ فيقول عنهم: «إني رأيت من تنحل بالكلام، وتجادل فيه، ليس سيأوهم سياء المتقدمين، ولا منهاجهم منهاج الصالحين، رأيتهم قاسية قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة» (٣).

وإذا كان الجدل لا بد أن يعتمد على حدة الذهن، والتزود بالأسباب

(١) ج ٣ ضحى الإسلام صفحة ٣٩

(٢) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٤

(٣) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٩

والعلل ، والإمعان والتعمق في دقائق المعاني ، والتفنن في ضروب الخطاب ، وسرعة الاستشهاد ، ليصول بلسانه حيث شاء ، ويعبر عن ضميره بأجلى العبارات ؛ فإن المعتزلة قد بلغوا من كل ذلك منزلة لم يلحق غبارها سواهم ، ولم يختص بها غيرهم ، فقد درسوا الفلسفة ، واقتضوا منها ما يوافق آراءهم ، ويلائم أهواءهم ، فمززوا به حججهم ، وقووا براهينهم ، واعتزوا بأنفسهم ، وتمسكوا بمتانة الخلق ، والاعتزاز بالنفس ؛ ومتانة الخلق من أهم الوسائل التي تميز شخصية الإنسان في رأيه وأسلوبه ومذهبه

أما متانة الخلق فيهم ، وصونه من أن تعبت به أمور الدنيا ، فأليك شهادة أبي جعفر المنصور ، داهية العباسيين وعالمهم ، في شيخ المعتزلة ومفتيها ، عمرو ابن عبيد تليذ واصل بن عطاء ، فقد قال عنه مادحاه : « نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو (١) » .

وقد كان لهم من الهية والاعتبار ، ماجعل أبا جعفر على جبروته ودهائه ، وعزته بنسبه وسلطانه ، يسمع لعظاتهم في خشوع واستعبار ، على ما فيها من خشونة ومواجهة بالحقائق المرة ما كان أبو جعفر ليقبلها ، لولا ما يعرّف من شدة تقوى المعتزلة وورعهم ، وقوة تأثيرهم في الناس . فقد دخل عمرو بن عبيد هذا على أبي جعفر ، فأمر أن تفرش له لبود بقربه . وأجلسه إليه بعد ما سلم ثم قال : يا أبا عثمان ، عظمى بموعظة ، فوعظه بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال : أمرنا لك بعشرة آلاف . قال : لا حاجة لي فيها . قال أبو جعفر : والله لتأخذنّها . قال : لا والله لا آخذها . وكان المهدي حاضراً فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! قالت عمرو إلى أبي جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابني وهو المهدي ، وهو وليّ عهدي . قال : أما والله لقد ألبسته لباساً ماهو من لباس الأبرار ، (لأن العباسيين كانوا يتخذون السواد لباسهم) ولقد سميته باسم ما استحقه بعمل ، ولقد مهدت له أمنع ما يكون عنه . ثم أقبل عمرو على المهدي فقال : نعم يابن أخي إذا حلف أبوك أحثه عمك ، لأن أباك أقوى على

الكفارات من عمك . فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهي ؟ قال : ألا تبعث إلي حتى آتيك . قال : إذا لالتقي اقال : هي حاجتي اثم ودعه ونهض ، فلما ولى أتبعه المنصور بصره ، وأنشأ يقول :

كلكم طالب صيد كلكم يمشي رؤيد

غير عمرو بن عبّيد (١)

أرأيت كيف يخاطب شيخ المعتزلة أمير المؤمنين المنصور ، وكيف يهون من شأن ابنه المهدي ، وكيف يزهد في ماله ويعف عنه ، وكيف يتمنى عمرو ابن عبّيد ألا يلقى المنصور فلا يسخط عليه ، وكيف يشيعه بنظرة الإجلال ؟ إنه العلم يرفع أقدار الرجال ، والزهد يكسب نفوسهم عزة . نشأ شيوخ المعتزلة في هذا الطراز ، فأثروا في سياسة الدولة الأموية والدولة العباسية ، من حدود المائة الأولى إلى حدود المائة الثالثة الهجرية ، وكانوا إلى ذلك أئمة البيان ، وأعلام البلاغة ، وكفى أن تعرف أن منهم الجاحظ ، والنظام ، والزحشرى ، وابن أبي الحديد ؛ أولئك العلماء الذين أثرت بفضلهم العربية ، وزخرت بحارها ، بما خلفوا من مؤلفات واسعة النطاق في البلاغة والأدب والعلم .

ونستطيع أن نجمل القول في المعتزلة بأنهم من ذوى الراى الذين أفسحوا من سلطة العقل ، ورجعوا في كل أمورهم إلى مشورته ، ودرسوا الفلسفة دراسة المتبصر ، وأمدوا بها علم الكلام ، وأحاطوا فهماً لأسرار اللغة ، واستظهاراً لمأثورها ، وتناولوا بالتفسير والتشريح والتحليل آيات القرآن والأحاديث ، وامتدت آراؤهم في جو السياسة فخلقت به وأثرت فيه حيناً من الدهر ، وكان لا يباريهم أحد في قوة الحجة ، وقد وضعوا أصول علم الكلام والجدل والمناظرة والبلاغة ، وملئوا الدنيا دوياء وعلماء ، وخلقوا الفرصة للعلماء المخالفين لهم ، فألفوا الكتب في الرد عليهم ومجادلتهم ونقض آرائهم ، فكان الأدب مدينأ لهم مادامت العربية وما دام لها أدباء .

وهنا ملاحظة رأيت أن أدلى بها قبل أن أتجاوز الكلام عن المعتزلة عامة ،

إلى الكلام عن بشر بن المعتمر خاصة ، وهي أن علماء المعتزلة تفرقوا في الأقاليم كما تفرق علماء النحو ، فكان هناك معتزلة بغداد ، ومعتزلة البصرة ، كما كان علماء الكوفة وعلماء البصرة في النحو ، وكان الجدل يستحر بين طائفتي المعتزلة ، كما كان يستحر بين البصريين والكوفيين من النحويين ، غاية الأمر أن الباحث المتبصر سينتهي إلى القول بأن معتزلة بغداد كانوا أقدر على الجدل ، وأقرب إلى الفلسفة ، وأعظم سلطاناً وأعلى مقاماً عند الخلفاء ، وأميل إلى الصرامة والتزمت من معتزلة البصرة ، الذين كانوا أميل إلى الأدب والبلاغة ، وأكثر إنتاجاً وتالياً ، وأقرب إلى روح التسامح والمرح ، وأبقى ذكراً في سجل التاريخ ، ولعلك تطمئن إلى هذا الرأي إذا عرفت أن بشر بن المعتمر وأحمد بن أبي دؤاد وثمامة بن أشرس من معتزلة بغداد ، وأن واصلاً والنظام والجاحظ من معتزلة البصرة وستنبع القول في رئيس المعتزلة ببغداد :

بشر بن المعتمر

هو أبو سهل ، بشر بن المعتمر ، الهلالي ، كان مولى لبني هلال بن عامر ، ذكره الجاحظ فقال عنه : إنه ، كان خاصاً بالفضل بن يحيى ، فقدم عليه رجل من مواليه ، وهو أحد بني هلال بن عامر ، فمضى به إلى الفضل ليكرمه بذلك ، وحضرت المائدة ، فذكروا الضب ومن يأكله ، فأفرط الفضل في ذمة ، وتابعه القوم بذلك ، ونظر الهلالي ، فلم ير على المائدة عريياً غيره ، وغازله كلامهم ... ، (١) وهذا الخبر وإن دل على وفاء بشر لمواليه من العرب ، وبرّه بهم ؛ إنما يدل أيضاً على تنقص الفضل ومن معه من أبناء الفرس من شأن العرب ، في معرض استهجان عادة كانت شائعة بين بدو الجزيرة أمام أحد أبنائها وهي أكل الضب ، حتى تغيط العربي ، وأدار بصره فيهم ، فلم يجد بينهم عريياً غيره .

وقد زعم ابن منظور أنه مولى لبني النضر فقال : « بشر بن المعتمر النضري ،

أبو سهل، كان أبرص، ويذكر أيضا أنه كان «أحد رؤساء المتكلمين»، وكان راوية، ناسبا، له الأشعار، في الاحتجاج للدين، وفي غير ذلك، ويقال: إن له قصيدة في ثلثمائة ورقة، احتجّ فيها، وقصيدة في الغول، وذكر الجاحظ أنه لم ير أحدا أقوى على المزدوج، والخمس منه، ^(١) «وأنه كان في ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحق»، ^(٢) ويذكر المرتضى «أن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجبيه»، ^(٣) أي كانوا من تلاميذه. ويعزز ما جاء في اللسان من أن له قصيدة في ثلثمائة ورقة ما جاء في مرجع آخر من أن «له قصيدة أربعين ألف بيت، ردّ فيها على جميع المخالفين»، ^(٤). وقال عنه أبو القاسم الليثي: «إنه من أهل بغداد، وقيل من أهل الكوفة، والظاهر أنه ولد وترعرع في الكوفة»، ثم ارتحل إلى بغداد، وبها نشر مذهبه في الاعتزال، وتلذذ له من تلذذ، مثل أحمد بن أبي دواد وثمامة بن أشرس وأبي موسى المزداد، وكان شيخه من المعتزلة، معمر بن عباد السلي، وعده ابن المرتضى من طبقة النظام وأبي الهذيل والجاحظ.

ولم يكن أثيرا لدى الرشيد، أو حظيا عنده، مع أنه رئيس معتزلة بغداد قاطبة، وله مكانة لا تجحد في العلم والحجة والأدب، وقد يعزى هذا إلى أنه كان مختصا بالفضل بن يحيى البرمكي. أو لانهامه بأنه من الرافضة، أو لتشيعة لسيدنا علي، أو لبرصه؛ والبرص من العاهات المنفرة ممن يصاب به. وسواء كان هذا أو ذاك، فإن واحدة مما تقدم لتكفي للحيلولة بينه وبين ما كان ينتظر لمثله من حظوة وتكريم عند الرشيد، وكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ.

مذهبه

لم تبسط المراجع التي استلمنا منها الرأي عن بشر القول فيه، ولم تخلع عليه من حلل اللفظ مثل ما خلعت على تلاميذه، إلا أن الواقع أنها كلها نعتة بالزعامة، ورجعت القول في أصول المسائل إليه، فقد نسب إليه القول بأن الله

(١) الجزء الرابع من اللسان صفحة ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢، ٤) أمالي المرتضى الجزء الأول صفحة ١٣١

(٣) راجع الانتصار صفحة ١٩٤

قادر على لطف لو فعله بالكافر لآمن طوعاً ، وأنه لو تفضل خلق العقلاء في الجنة لكان أولى .

وهو صاحب القول بنظرية التولد ، وفخراها أن الأفعال التي تنتج مثولدة من فعل الإنسان ، هي أيضاً من فعله ، فإذا مزجت سائلاً بآخر ، فتتج للزيج لون جديد يخالف لون كل من السائلين قبل المزج ، يقال إنك الذي فعلت المزج ، وفعلت اللون الحادث من المزج ؛ وإذا أصاب العين رمد لم تبصر معه ، فأزال الطيب الرمد ، يقال إن الطيب هو الذي أوجد السلامة في العين ، وأوجد ما يترتب عليها من الإبصار ، وجملة القول ، أنه يصح من الإنسان أن يفعل الألوان والطعوم والروائح والرؤية والسمع وسائر الإدراكات على سبيل التولد إذا فعل أسبابها ، وكذلك قوله في الحرارة والرطوبة واليوسة ، (١) ويرى أن الله يغفر الذنوب الكبائر لمن يجتريها بشرط أن يتوب عنها ولا يعود إليها ، فإنه قيل توبته بشرط ألا يعود ، (٢) فإن رجع في توبته ، أخذه الله بما ارتكب أولاً وآخراً ، لأن التوبة إنما تستوجب الغفران إذا كانت رادعة عن العودة إلى الإثم والمعصية ، وله غير ذلك أقوال أخرى في علم الكلام انفرد بها ، ولم نر ضرورة ملزمة للتعرض إلى ذكرها ، وإنما أوردنا من أقواله ما يعزز القول بأنه كان من أئمة المعتزلة وذوى الراى فيهم .

ومن الأقوال التي نسبت إليه ماورد ذكرها في كتب الفلاسفة فتأثر بها وأدبها في مسائل علم الكلام ، كمسألة التولد ، فإنها من صميم مسائل الفلسفة ، وقد تأثر بها بشر حينما تقرر عند المعتزلة القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه ، فزاد عليها بأنه يخلق أيضاً ما يتولد من هذه الأفعال . وقد ذكر عبد القاهر البغدادي في كتابه ، الفرق بين الفرق ، (٣) المسائل التي نسبت إلى بشر ، وأسمائها فضائح ، ثم عرض إليها ابن الخياط المعتزلى في كتاب ، الانتصار ، (٤) بالتأييد

(١) الفرق بين الفرق صفحة ١٤٣

(٢) الملل والنحل على هامش الفصل صفحة ٨٣

(٣) صفحة ١٤١ - ١٤٥ ، حيوان ٦ (٤) حيوان ٦ صفحة ٦٢ - ٦٥

(٣ - صحيفة دار العلوم)

وأبان وجه الرأي في كلام بشر، ونبي اللوم عنه، فارجع إليهما إن أردت المزيد.
وحكى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، أن بشرا كان مع اعتزاله
متشيعا لسيدنا علي، وكان يقول - وتابعه في ذلك سائر معتزلة بغداد - بتفضيل علي
على سيدنا أبي بكر، إلا أنه يحكم بصحة خلافته، لأن عليا بايعه غير مكره.
وقد ألف بشر التصانيف في الرد على معتزلة البصرة، كأبي الهذيل،
والنظام، وأبي بكر الأصم، كما ألف الكتب أيضاً في الرد على الرافضة،
والمرجئة، والخوارج.

وقد كان قاسيا في تصويره لأبي الهذيل، فقد صبه في قالب الرجل الذي
لا يدين بمبدأ ولا يدافع عن معتقد، ورماه بحج الظهور، والظفر برضا الجمهور،
قال الجاحظ: «وكان بشر يقع في أبي الهذيل، وينسبه إلى النفاق، فقال وهو
يصف أبا الهذيل: لا أن يكون لا يعلم وهو عند الناس من العلية، أحب إليه
من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة، ولأن يكون نبيل المنظر
سخيخ المخبر، أحب إليه من أن يكون سخيخ المنظر نبيل المخبر، وهو بالنفاق
أشد عجبا منه بالإخلاص، ولباطل مقبول أحب إليه من حق مدفوع» (١).

أزبه:

لم يكن بشر من أئمة المعتزلة فحسب، ولكنه كان أرواهم للشعر (٢) - كما
حدث الجاحظ - «وكان شاعرا. وأكثر شعره على المسمط» (٣) والمزدوج، كما

(١) أمالي المرتضى ١ ص ١٣٢

(٢) حيوان ٦ ص ١٣٥

(٣) الفهرس لابن التديم صفحة ٢٣٠ - والمسمط من الشعر: ما قفي أرباع بيوته،
وسمط في قافية مخالفة، ويقال: قصيدة مسمط وسميطة كقول امرئ القيس:

مرايع من هند خلعت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعواذف

وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

بأسح من نوء السماكين هاطل

اه من جزء ٩ لسان صفحة ١٩٣

كان من أهل الجدل، وأصحاب المقالات في البلاغة والأدب، عالماً بالأنساب، حافظاً للسير والأخبار، دارساً لطبائع الحيوان، ملماً بما كان يشحن أذهان العرب من الأساطير والخرافات.

وسنعالج القول في شعره ونثره ومناظراته. لعل هذه الأمور الثلاثة إذا أرضينا فيها البحث أن تكشف عماله من أثر في الأدب، وإن كان ما لدينا من نصوص شعره ونثره ومأثور قوله، أقل مما كنا نطمح في الوصول إليه لتجعله أداة البحث وندير الرأي حوله:

شعره:

لم يتخذ بشر الشعر ليصور به عاطفة تجيش في صدره، أوليزين به في مراتع اللعب والمجون التي كانت شائعة في عصره، أو ليتزلف به في مدح خليفة حتى يستندى كفه، وإنما اصططعه ليقارع به خصومه في الرأي، ويحتج به عليهم، ويدافع عن يميل إليهم؛ ولعله استجاب إلى الشعر دون النثر، ليستعين بسهولة حفظه، وحسن جرسه، وموسيقية نظمه، على ظهور حجته على خصمه، وشيوع قوله، وسهولة روايته، وبقائه في الأذهان.

ولهذا يسهل علينا إيجاد السبب لرغبته في الشعر المزدوج والخميس خاصة، وإثارهما على القافية المضطردة، فإن الشعر المزدوج أو الخميس مما ييسر على الشاعر النظم، ويطلقه من قيود القافية الواحدة، ويرخي له عنان القول، حتى قيل إن نظم قصيدة واحدة في أربعين ألف بيت، أو في ثلثمائة ورقة، على إحدى الروايات. وإن علماء المعتزلة كانوا يستمدون من العقل حججهم وبراهينهم، وكانوا يسلكون في التدليل على آرائهم مسالك ضيقة، فلوسار بشر في برهاناته على التزام قافية واحدة، لشرد منه هذا التقييد كثير من المعاني، فيسقط البرهان، وتخفى معالم الدليل، أما التحلل من قيود القافية الواحدة، فإنه يمكنه من إيضاح حجته، والتغلب على خصمه، وكان بشر في هذا الصدد أهدى إلى الصواب من أبي العلاء الذي جاء بعده، والتزم في فلسفته واجتماعياته ونقده ما لا يلزم من القافية، فجاء بالغيرب، وفنك بكثير من المعنى في سبيل التكلف والتعسف.

ولا تطمع أن تجد في شعر بشر غذاءً لعاطفتك ، أو ترويحاً لنفسك ، فإنه كما قدمنا لم يسلك مسالك أهل العاطفة والخيال ، ولم يتجه بشعره كما تشتهى الفرائز ويوحى جمال الكون وأسرار الطبيعة ، ولكن معظم شعره من النوع التعليمي ، الذي يخاطب العقل ، ويهدي إلى الحجة ، ويرأى من خصومه من أهل الفرق :

فهذه مقطوعة من شعره ، يطعن فيها على هشام بن الحكم شيخ الرافضة ، ويرأى منهم ومن جهم بن صفوان ، ويفضل عليهم شيخه عمرو بن عبيد ، ويقال إنه قالها لما حبسه الرشيد لاثامه بقول الرافضة :

ما بالُ مَنْ يَتَحَلُّ الإِسْلَامَا متخذاً إمامه هشاماً

فحن لا تنفك تلقى عارا نقر من ذكرهم فرارا

تنفيهم عنا ولسنا منهم ولاهم منا ولا نرضاهم

إمامهم جهم وما لجهم وصحب عمرو ذى التقى والعلم

لسنا من الرافضة (١) الغلاة ولا من المرجئة الجفافة

لا مفرطين بل نرى الصديقا مقدماً ، والمرضى الفاروقا

وهذه أبيات أخرى من شعره المزدوج ، يمدح بها سيدنا علياً ، ويذكر فضله على الخوارج ، ويمثلهم ببعض الحشرات الخبيثة ، وفيها يورد بعض الحكم والأمثال ، وهى : (٢)

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن

غر مصاييح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعارب

كثيل حرقوص ومن حرقوص بقعة قاع حولها قصيص (٣)

(١) هم طائفة من الشيعة رفضت إمامة زيد بن علي لأنه لم يرأى من أبى بكر وعمر

(٢) نقلاً عن الحيوان الجزء السادس صفحة ١٥٥

(٣) الحرقوص : دويبة صغيرة مثل القراد ، وقيل هو من البراغيث . والبقعة (بفتح

اللام) : مكان يستتبع فيه الماء . والقصيص : جمع مفردة قصيص : وهى شجرة تلبث فى أصلها الكمأة ويتخذ منها الغسل

ليس من الخنظل 'يشتار' العسل ولا من البحور 'يظطاد الورل' (١).
 هيهات ! ما سافلة كعاليه ما معدن الحكمة أهل البادية
 ولبشر قصيدتان رائيتان ، إحداهما مضمومة القافية والثانية مكسورتها ،
 وتقع الأولى في ستين بيتاً ، وتقع الثانية في سبعين بيتاً ، ذكرهما الجاحظ في الجزء
 السادس من كتاب الحيوان ، وقال في مقدمة ذلك : « أول ما نبدأ - قبل ذكر
 الحشرات ، وأصناف الحيوان والوحش - بشعرى بشر بن المعتمر ، فإن له
 في هذا الباب ، قصيدتين ، قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد . ونبه
 بهذا على كثير من الحكمة العجيبة ، والمواعظ البليغة » (٢) ثم شرحهما شرحاً
 وافياً ، واستطرد في الشرح على عادته إلى سرد طباع الحيوان ، والاستشهاد
 بالشعر والنثر . وذكر بعض القصص المأجنة أحياناً ، والخرافية أحياناً أخرى .
 والحق أن بشراً قد دل بهاتين القصيدتين على غزارة علم وسعة اطلاع
 وكثرة حفظ لأنواع الحيوان والحشرات وتفهم طباعها ومعرفة خصائصها .
 ولم يفته في آخر القصيدة الأولى أن يذكر الرافضة والإباضية والناطقة وينجي
 عليهم بالطعن والثلب ، كقوله :

إني وإن كنت ضعيف القوى فالله يقضى وله الأمر
 لست إباضياً غيباً ولا كرافضياً غره الجفر
 كلاهما وسع في جهل ما فعاله عندهما كفر
 لسنا من الحشو الجفافة الآلى عابوا الذي عابوا ولم يدروا
 قلوبهم شتى فامنهم ثلاثة يجمعهم أمر
 إلا الأذى أو بهت أهل التقى وإنهم أعينهم خرز
 فهو في هذه القصيدة والتي تليها يذكر الأعاجيب من طباع الحيوان والحشرات ،
 وهذه أبيات من قصيدته الأولى أيضاً نذكرها على سبيل المثال :

(١) الورل : دابة صحراوية خفيفة الحركة ليس شيء من الحيوان أقوى على أكل
 الحيات وقتلها منه . اه حيوان الجاحظ

وحكمة يبصرها عاقل ليس له من دونها ستر
 جرادة تخرق متن الصفا وأبغث يصطاده صقر
 سلاحه رُمح فما عذره وقد عراه دونه الذعر
 والدب والفرد إذا علما والفيل والكلبة والبغر^(١)
 يحجم عن فرط أعاجيبها وعن مدى غاياتها السحر
 وظية تخضم^(٢) في حنظل وعقرب يعجبها التمر
 وعضرفوط^(٣) ما له قلة وهدهد يكفره بكر

فهو يبدى عجيبة من حكمة الخالق لهذه الدواب والطيور ، فقد جعل الجرادة على صغر حجمها قدرة على خرق الحجر ، وجعل الطير المسمى الأبنث - وبدنه أعظم من بدن الصقر ، وهو أشد منه ومنقاره كسنان الرمح - يستخرى للصقر ويهرب منه . فالمسألة في ذلك ليست في عظم الجسم وقوته ، ولكن الخالق ركز في الصقر هيئة جعات الأبنث الضخم القوى يخشاه ويفر منه ، ثم يذكر الحيوان القابل للتعلم ، وهو الفرد والدب والفيل والكلب وصغار الغنم ، وأنها تأتي إذا علّمت بالعجب العجيب ، ثم يضى فيذكر أن من طباع الظبية حب الحنظل ، ومن طباع العقرب حب التمر ، فاعجب كيف أن الظبية تمضغ الحنظل وتستلذه وتستحليه على مرارته . ويعود فيذكر أن العضرفوط والهدهد من طبعهما أن أن يهيا على وجهيهما ، وفي أثناء هذا يشير إلى مسألة في علم الكلام ، وهي أن بكراً هذا كان يقول في هدهد سليمان ، إنه ترك موضعه وسار إلى بلاد سبأ ، ثم أطرف سليمان بنجر بلقيس ، ولكن إحسانه في الثانية ، لا يعفيه من الذنب في الأولى ، ولا يكون ذنبه الذي ارتكبه بترك موضعه ، إحساناً بعثوره على

(١) البغر : صغار الغنم

(٢) تخضم : تقطع وتمضغ بأضراسها ، والخضم يكون في قطع اللين ، أما التضم فهو قطع اليابس .

(٣) العضرفوط : دويبة يظن أنها مبطية الجن

بلقيس والوقوف على حال قومها ، فحكم على الهدمد بالنفاق والكفر ، فعرض
به بشر وانتقده ، لأنه رأى أن البهائم والطيور ترتكب الذنوب وتأتى .
وفي القصيدة الثانية يميل إلى التنبيه إلى العظة والحكمة التى أودعها الله فى
الوحوش والحشرات وما فيها من آية دالة على قدرة الله ، ويمجد العقل خير
تمجيد ، ويذكر أنه الهادى فى العسر واليسر ، والحاكم الذى يستنبط الغائب من
الشاهد ، فيقول مثلاً :

والحشرات العُبرُ منبئة	بين الورى والبلد القفر
وكلها شر ، وفى شرها	خير كثير عند من يذرى
لو فكّر العاقلُ فى نفسه	مدة هذا الخلق فى العمر
لم يرَ إلا عجباً شاملاً	أو حجة تنقشُ فى الصخر
فكم ترى فى الخلق من آيةٍ	خفية الجُسمان فى قعر
أبرزها الفكرُ على فكرةٍ	يحار فيها وضحُ الفجر
لله دُرُّ العقل من رائدٍ	وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائبٍ	قضية الشاهد للأمر
وإن شيئاً بعضُ أفعاله	أن يفصل الخير من الشر
لذو قوى قد خصه ربه	بخالص التقديس والطهر

على أن بشرأ على غزارة علمه فى معرفة طبائع الحشرات والحيوان وصفات
أجسامها ، قد تأثر فى بعض ما نظمه عن الحيوان بما كان يشيع فى عصره من
أقوال لا تستند إلى علم أو تجربة ، فهو يذكر فى قصيدته الثانية التى نحن بصدد
إبداء الملاحظات عليها ، أن الجمل ليست له مرارة ، وأن خصيته وشقشقته
لا توجدان عند حدوث الموت والنحر ، وأن الفرس لا طحال له ، وأن جوف
الثور فيه عظم ، فيقول :

والمُعَرَّمُ ^(١) المعلم ما إن له مرارة تسمعُ فى الذكر

(١) الممرم ككرم : البعير لا يحمل عليه

وخصية تنصل من جوفه عند حدوث الموت والنحر
ولا يرى بعدهما جازرٌ شقشقة مائلة الهدر
وليس للطرف طحالٌ وقد أشاعه العالمُ بالامر
وفي فؤاد الثور عظم وقد يعرفه الجازرُ ذو الخبر

وقد علق الجاحظ على هذه الآيات بكلام نورد إليك بعضه لما فيه من
فكاهة مليحة، قال: «لقد تنازع بالبصرة ناس فأطبقوا جميعاً على أن الجمل إذا نحر
لا توجد له خصية ولا شقشقة، فلم أجد ذلك عمل في قلبي مع إجماعهم على ذلك،
فبعثت إلى شيخ من جزاري باب المغيرة فسألت عن ذلك فقال: بلى، لعمري
إنهما ليوجدان إن أرادهما يريد، وإنما سمعت العامة كلمة وربما مزحنا بها فنقول:
خصية الجمل لا توجد عند منحره، أجل والله ما توجد عند منحره وإنما توجد
في موضعها^(١)، اه بتصرف

أما بعد فإتنا نكتفي من الحديث عن شعر بشر بما أوردناه، ومن أراد أن
يشبع رغبته من دراسة هاتين القصيدتين فليرجع إلى الجزء السادس من كتاب
الحیوان للجاحظ.

نثره:

ليس لدينا الآن من نثر بشر، أكثر من صحيفته الذائعة، التي لم نر أمهات
الكتب القديمة في الأدب جاءت خلواً منها، كما أن لدينا عبارات قصيرة عثرنا
عليها منشورة في أثناء الكلام عن البلاغة أو القلم، ولكنها لا تمد الكاتب بما يرغب
فيه من دقة البحث والتحليل. فلنورد صحيفته، ثم نعود إلى التحدث عنها بما يعن
لنا في إيجاز، قال الجاحظ في البيان والتبيين: (٢)

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخزومة السكوني الخطيب وهو يعلم فتيانهم
الخطابة. فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من

(١) حيوان ٦ ص ١٤٩

(٢) الجزء الأول صفحة ١٠٤

النظارة . فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ، واطوروا عنه كشحاً . ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسبأ ، وأحسن في الاستماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، والتكلف والمعاودة . ودمهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، وخفيفا على اللسان سهلا . وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد . والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك . ومن أراد معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويُهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس إظهارهما . وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما . وكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخا سهلا ، ويكون معنأك ظاهرا مكشوبا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة . مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلبك . ولطف مداخلك ، وإقدارك على نفسك ، على أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهماء ، ولا تجفروا عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام . . . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ، وتجذ اللفظة لم تقع بموقعها ، ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحمل في مركزها وفي نصابها ، ولم تصل بشيكلها ، وكانت قلقة في مكانها ،

نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها؛ فإنك إذا لم تعاط قرص الشعر الموزون، ولم تكلف اختيار الكلام المنشور، لم يعبك بترك ذلك أحد. وإن أنت تكلفهما ولم تكن حاذقا مطبوعا، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك. فإن ابتليت بأن تكلف القول وتماطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة؛ وتعصى عليك بعد إجمالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه يياض يومك، أو سواد ليلك، وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والموائاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق. فإن تمنع عليك بعد ذلك غير حادث شغل غرض، ومن غير طول إهمال. فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأحفظها عليك، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب. والشئ لا يحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات. لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة. كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا. قال بشر: فلما قرئت على إبراهيم قال لي: أما أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان.

فقد رسم الوسائل التي يجري عليها مرید الخطابة، وأرجعها في جملة ما يأتي:

(١) تخير الوقت المناسب، حين تتمتع النفس بالنشاط وفراغ البال.

(٢) التحذير من التوغر، الذي يؤدي إلى التعقيد، وهو يؤدي إلى ضياع المعاني، ورداءة الألفاظ.

(٣) التماس اللفظ الشريف للمعنى الشريف

(٤) موافقه الكلام للحال وما يجب لكل مقام من المقال.

(٥) إن البليغ التام هو الذي يبلغ من بيان اللسان ما يفهم به العامة معاني الخاصة في الألفاظ الواسطة

(٦) خير لمن يكره اللفظ على غير موضعه، ويتعصى عليه القول بعد إجمالة الفكر، أن يتركه حتى يعأوده نشاطه، فإن رجع إليه وامتنع عليه القول بعد ذلك، كان الأولى به أن يترك الكتابة ويحترف صناعة أخرى يكون له إليها ميل

وهذه الإرشادات القيمة التي ابتكرها بشر ابتكاراً ، تصلح أن تكون دستوراً لمن يريد الكتابة أو الخطابة على السواء ، بل هي وسائل توصل إلى حذق الكتابة أكثر من الخطابة ، إلا أنها تدل على أن لبشر قدما راسخة في النقد ، وأنه ذو بصر في فن الأدب كتابة وخطابة شأنه في الشعر ، وللخطابة مقومات ودواع أخرى غير ما ذكر بشر ، وهذا الكلام يبين أن بشر أدرس الخطابة دراسة علمية ، ولكننا لم نسمع أنه كان من خطباء عصره . ويغلب على الظن أن هذه الصحيفة أثر من الدراسة الشخصية لبشر ، أى أنه لم ينقل منها شيئاً عن أصول الخطابة عند اليونان ، لأن بشر أجرى في مساق الكلام عن الخطابة ، على غير الطريق الذي سلكه أرسطو في كتاب الخطابة ، كما أن التقديم الذي أورده الجاحظ لهذه الصحيفة ، من اعتراف إبراهيم بن جبلة بشدة احتياجه لدراسة الصحيفة أكثر من تلاميذه ، يدل على المكانة الأدبية التي كانت لبشر في بغداد . وأنه كما كان فيها زعيم المعتزلة ، قد كان له زعامة في الأدب

ولم أقرأ لبشر من النتاج الأدبي الفنى شيئاً مطولاً غير صحيفته تلك ، ويخيل إلى أنه كان يميل إلى وضع القوانين للفنون المختلفة شأن الأئمة والزعماء ، فكتابته كشرعه تشريع أو تعليم .

ولقد كان بشر مطيلاً في صحيفته تلك ، ومسهباً في ذكر وجوه الرأي فيها ، ولكنه في موضع آخر يقصر ويوجز كل الإيجاز ، في موضوع مشابه لموضوع الصحيفة . أى متعلق بالكتابة والخط والقلم ، فقد قال : القلب معدن ، والحلم جوهر ، واللسان مستنبت ، والقلم صانع ، والخط صنعة ^(١) ، فأورد في سطر واحد ، الكلام عن أمور خمسة ، فضرب المثل في التطويل والإيجاز ، فدل بذلك على طوعية قلم ، ورسوخ قدم .

مدرسة ومناظراته :

اتخذ المعتزلة - كما أسلفنا - الجدل والمناظرة سلاحا يشهرونه في وجوه خصومهم ، ويدحضون به حججهم ، وبرعوا في استعماله براعة دلت على عقل مفكر ، ولسان فصيح ، وعلم عزيز . ويخيل إلى أنه لو كان نظام المحاماة في القضايا جاريا في عهد العباسيين ، لكسب المعتزلة كل القضايا التي يتولون الدفاع فيها ، وإليك مناظرة جرت بين بشر وأبي العتاهية ، قصد فيها بشر إلى تزييف زهد أبي العتاهية وإظهار سوء قصده ، فأخذ عليه منافذ القول ، وأخزاه وأخفه . ووصل إلى ما يريد أن يفهمه أبو العتاهية من رأى بشر فيه ، فيقبله مدعنا ، دون أن يجد له حيلة في الرد عليه ، أو نقض ما يقول ، وإليك المناظرة :

ذكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل أن بشر بن المعتمر قال يوما لأبي العتاهية : بلغني أنك لما نسكت جلست تحجّم اليتامى والفقراء للسبيل ، أ كذلك كان ؟ قال : نعم ؛ قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسى حسبا رفعتنى الدنيا . وأضع منها ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجّم اليتامى والفقراء خاصة ؛ فقال له بشر : دعنى من تذليلك نفسك بالحجامة ، فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك : أحب أن تخبرنى : هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجّمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ؛ قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرج به على قدر طبعه بما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضرر المحجوم ؟ قال : لا ؛ قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين (١) .

وله مناظرات أخرى في مسائل علم الكلام ، تجد بعضها في الجزء السادس من الحيوان ، وتجد البعض الآخر في أمالى المراتضى فارجع إليها إن شئت

حسن علوان

الملاحظ

بقلم عبد الستار سليم

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية للبنات

لا نحاول فيما نكتب عن الملاحظ أن نلم بجميع نواحيه العلمية والأدبية والفلسفية ،
فذلك مالا سبيل إليه في هذا المقام ، كما لا نحاول أن نحلل تلك الشخصية الفذة ، وليس
من السهل تحليلها والاشاطة بجميع الأساليب والملايسات التي كان لما أنرفى تكويتها .
وإنما نريد أن نلقى شعاعاً من الضوء تنير به الطريق لمن أراد أن يعرف شيئاً عنه من
الناشئين أو الطلاب . وعلى من أراد أن يدرسه دراسة وافية أن يرجع إلى كتبه
ومصنفاته فيقرأها بتزود وروية ، ثم يحكم على مقتضى فهمه وإدراكه ، وحينئذ يتجلى له
مكانة الملاحظ وعبقريته وأدبه وحكته وعلمه وفلسفته وفصاحته وبلاغته وجده وهزله

هو نادرة البطون ، وهبة الأجيال والقرون . فيلسوف المتكلمين ، وأحد
أساطين العلم المعدودين . ورجالات الأدب المبرزين ، صاحب التصانيف الممتعة
في كل فن ، والرسائل القيمة في شتى الأغراض ومختلف الشؤون .

أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكنانى البصرى
ويقطع كثير من المحققين بأنه كنانى بالنسب لا بالولاء ، ويؤيدون هذا الرأى
بما جرى عليه في كتبه ومؤلفاته من شدة تعصبه للعرب وتمدحه بفضائلهم .
وكان على أدبه وفضله دميم الخلق جاحظ العينين ، والجحوظ : التواء ، ولذلك
قيل له الجاحظ ، كما كان يقال له أيضاً الحدق لذلك

نشأته وتربيته

ولد الجاحظ بالبصرة حوالى سنة ١٦٠ هـ في خلافة المهدي ونشأ بها . وكانت
في ذلك الوقت كعبة العلماء وحلبة الفقهاء ومنتدى الأدباء ومبارة الرواة والمحدثين
واللغويين . وحاضرة البر والبحر ، وقرارة المرید ، والنهضة العلمية الأدبية لاتزال
في إبانها ، والعلوم والمعارف أقوى أسباب الاتصال بالخلفاء والوزراء والولاء ؛
فوجد بيئة صالحة للتعليم ، ومجالاً واسعاً للدرس ، وحافزاً قوياً للتحصيل ،

ومواهب نادرة لا يزيد بها الكد والاستطلاع إلا قوة ونمًا؛ فأكب على العلم وتفرغ له، فلم يترك فنًا من الفنون، ولا علمًا من العلوم المعروفة في عهده إلا ضرب فيه بسهم وأخذ منه بأكبر نصيب.

ولقد أدرك طبقة أبي عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي الحسن الأخفش، وعندهم وعن غيرهم من شيوخ العلم ورواة الأدب أخذ اللغة والأدب والنحو

ثم لازم أستاذه أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي المشهور، وعليه تخرج في علم الكلام ومذاهب الاعتزال

وكثيراً ما كان يذهب إلى مريد البصرة وهو إذ ذاك أشبه بسوق عكاظ في الجاهلية، يلتقي فيه الشعراء والخطباء والرواة والنسابون ويعرضون ثمرات قرائحهم وتاج أفكارهم، فيأخذ الفصاحة عنهم شفاهاً

ولقد أولع بالكتب وقراءتها أو استظهارها؛ قال أبو هفان: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ؛ فإنه لم يقع يده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكثر دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر،

وذكر المبرد أنه ما رأى أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، ثم قال: «فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع يده كتاب قرأه من أوله إلى آخره أي كتاب كان،

وكان يحفظ كثيراً مما يقرأ، ويستوعب كل ما قرأ أو سمع فهمًا وإدراكًا، فلا يكاد ينتهي من قراءة كتاب حتى يكون قد ألم بما فيه

وقد خالط كثيراً من مترجمي الفرس والسريان، وقرأ جميع ما ترجم في أزمان المنصور والرشد والبرامكة والمأمون، فأحاط بجميع الثقافات المختلفة: من عربية وفارسية ويونانية وهندية؛ فكان لذلك أثر واضح في ثقافته وإنتاجه، فقد مزج الفلسفة بالأدب والفكاهة، كما غلب عليه مذهب المعتزلة في الكلام

ولقد أقام الشطر الأول من عمره بالبصرة باحثاً مستطلعاً، وكان إذا أعوزه

بحث أو استقراء أو استكمال معرفة انتجع بعض المدائن الإسلامية المعروفة،
للقاء العلماء ومباحثة الرواة والأدباء، ثم يعود وقد ملأ وطابه بما أراد من علم
وأدب؛ ولعل ذلك من أسباب كتابته في السياسة والاجتماع

وكانت إقامته في البصرة إقامة المترفين؛ لعله وأدبه وذكاؤه وفطنته، مما حبه
إلى الولاة والأعيان ورؤساء الموالي، فأغدقوا عليه العطايا والمنح، بسبب ما كان
يصنفه لهم من الرسائل والكتب التي كان يؤيد فيها مذاهبهم وينقض آراء مخالفينهم؛
فيرضيه بذلك من ناحية، ويدل على فضله وأدبه وقدرته من ناحية أخرى.
وقد سأله ميمون بن هرون حينما رآه يتقلب في النعمة: «ألك ضيعة بالبصرة؟»
فتبسم وقال: «إنما أنا وجارية لي، وجارية تخدمها، وخادم وحمار...»

... أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف
دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف
دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني
خمسة آلاف دينار، فأنصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد
ولا تسميد،

ولما جاوز الخمسين من عمره، كثر انتجاعه إلى بغداد وأواخر عهد المأمون،
وكل عصر المعصم والواثق، وشطراً من زمن المتوكل؛ وكان يقيم بها ويتصدر
للدرس والمناظرة، فيلتف حوله العلماء والأدباء، ويؤمه الطلاب على اختلاف
الملل وتباين النحل، فيرتوون من مناهله، ويغترفون من بحاره

وكان ينتجع المأمون ووزرائه وكتابه وكبار رجال دولته، ثم انقطع في الانتجاع
إلى محمد بن عبد الملك الزيات مدة وزاراته الثلاث؛ وكان يقيم بسر من رأى؛
وبعد موت ابن الزيات عاد إلى البصرة وفلج بها، واستمر مدة مفلوجاً، وكثيراً
ما كان يحمل إلى بغداد ليستمتع به؛ وقد توفي في إحدى هذه الرحلات سنة ٢٥٥ هـ

عقبته وأثرها في أدبه

كانت ملازمة الجاحظ لأستاذه النظام من أسباب نشأته على غرارته في القول
بسلطان العقل والاحتكام إليه في كل شيء، ووجوب الشك والتجربة قبل الاعتقاد

واليقين؛ ولقد انتصر لهذا المذهب بيلاغته وبيانته وكتبه ورسائله، حتى صار لسان المعتزلة في زمنه

وكان لتقدم النهضة العلمية وازدياد حركة التأليف والترجمة وامتداد الزمن به، ما هiałه أسباب الإلمام بالفلسفة اليونانية أكثر مما هيء لاستاذة النظام؛ ولذلك تجده قد تغفل في الكلام ومزجه بكثير من آراء الفلاسفة اليونانيين، وانفرد فيه بمقالة وافقه عليها كثير من متكلمي زمانه سموها الجاحظية

ولم يكن في عهده من يدانيه معرفة واطلاعاً، لأنه أحاط بجميع ثقافات عصره، على حين كان العالم لا يبرز إلا في ناحية واحدة من نواحي العلم والمعرفة؛ فاللغوى واقف عند حد اللغة، والأديب لا يتعرض للفلسفة، والمؤرخ لا يبحث في الدين، والفيلسوف لا يضطلع بأعباء الأدب ومباحثه

أما الجاحظ فقد اضطلع بأعباء الثقافات كلها، فكان يروى الأدب وينقده نقد البصير، وينقل آراء الفلاسفة ويزنها بميزان العقل، فما استساغ عقله قبله، وإلا هزأ به وبرهن على خطئه وفساده؛ ولقد كان من أثره في الأدب أنه حدد موضوعه - وكان قبله شكلاً تقريباً - وأغزر معانيه؛ فانتسعت أغراضه، وتشعبت مباحثه، ودقت مقاصده.

وأما أثره في الفلسفة فقد مزجها بالأدب وصاغها صياغة أدبية تقر بها إلى الذهن، وربط أقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء، فإذا بالشعراء يتناولون معاني المتكلمين في أشعارهم، بل يعتقدون بعض مذاهبهم الدينية وينتصرون لها. وكان له من أسلوبه الفضفاض ومتداداته الطويلة ما يكفل جلاء الغامض وتقريب البعيد؛ فأصبحت الفلسفة غذاء للنفس والعقل معاً، ولقد كانت قبل الجاحظ في واد والأدب في واد آخر، والهوة سحيقة بينهما

علمه وأدبه

قلنا إن الجاحظ قد أحاط بجميع أنواع الثقافة المعروفة في زمنه، من إسلامية وفارسية ويونانية وهندية؛ ولذلك انفق الرواة والمحققون على أنه لم يكن في عهده رجل أوسع منه معرفة ولا أمتع أدباً، ولا أظف بحثاً، ولا أظرف فكاهة،

ولا أبلغ عبارة، ولا أكثر تصنيفاً، ولا أوضح حجة وبرهاناً ~~في~~ فهو عالم أديب، وفيلسوف متكلم، وكاتب مترسل، وراوي صادق، ومحاضر فكه، ومضنف بارع؛ ويمتاز بأنه أول من وضع أسس كتب الأدب الجامعة، بتصنيفه كتاب البيان والتبيين؛ وأول من أسهب القول في اللطائف والفكاهات، وأول من وضع كتب المحاضرات الجامعة لكثير من فنون الأدب الكثيرة، وأول من جمع بين طرفي الجد والهزل، وعرف عن الحيوان والنبات والموات وأحوال الناس ونظم معيشتهم وعاداتهم وأخلاقهم ما لم يعرفه أحد قبله.

ولذلك يعتبر أحد نوابغ الدنيا الذين لا يجود الدهر بمثلهم إلا بعد أجيال وقرون، ولقد كان على دمامة خلقه خفيف الروح، حلو الفكاهة، طيب الحديث؛ وكان من الذكاء والفظنة ودقة الحس وصدق الفراسة بحيث لا يشاركه في ذلك سواه؛ فقد روى ابن خلكان عن بعض البرامكة أنه قال: «كنت تقلدت السند فأقمت بها ماشاء الله تعالى، ثم اتصل بي أنى صرفت عنها - وكنت كسبت بها ثلاثين ألف دينار - نخشيت أن يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه، فصغته عشرة آلاف أهليلجة، في كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل، ولم يمكك الصارف أن أتى، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج، فأحببت أن أراه قبل وفاته، فصررت إليه فأفوضت إلى باب دار لطيف فقرعته، فخرجت إلى خادم صفراء؛ فقالت: من أنت؟ قلت: رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ. فبلغته الخادم ماقلت؛ فسمعتة يقول: قولي له: وما تصنع بشق مائل، ولعاب سائل، ولون جائل؟ فقلت للجارية: لا بد من الوصول إليه. فلما بلغته قال: هذا رجل قد اجتاز البصرة وسمع بعلني فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ. ثم أذن لي؛ فدخلت وسلمت عليه، فرد رداً جيلاً وقال: من تكون أعزك الله؟ فانتسبت له؛ فقال: رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الأجواد؛ فلقد كانت أيامهم رياض الأزمته، ولقد انجبر بهم خلق كثير؛ فسقياً لهم ورعياً. فدعوت له وقلت: أنا أسألك أن تنشدني شيئاً من شعرك. فأنشدني:

لئن قدمت قبلي رجال فظالما مشيت على رجلي فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه فترم منقوضاً وتنقض مبرما
ثم مضت؛ فلما قاربت الدهليز قال: يا فتى، أرايت مفلوجا ينفعه الإهليلج؟ قلت:
لا. قال: فإن الإهليلج الذى معك ينفعنى، فابعث لى منه. فقلت: نعم، وخرجت متعجبا
من وقوعه على خبرى مع كتمانى له، وبعثت مائة إهليلجة، - ولكنى لأنسب
ذلك إلى صدق الفراسة، بل يغلب أن يكون قد أخذ من حديث الرجل سره أو
عرف قبلا ما يعتمد إليه أمثاله عادة فى مثل حالته فطلب إليه ما طلب.

وكان الجاحظ قليل الاعتداد بما يجرى عليه الناس من تقاليد وعادات
ورسوم؛ ولعل ذلك يرجع إلى اعتداده بنفسه واحتكامه إلى عقله فى كل ما يأخذ
به نفسه من عادة أو يصدر عنه من قول وعمل، مما اوقع فيه بعض المتورعين أو
الحاسدين، فاتهموه فى عقيدته ورموه بكثير من المثالب

فصاعته وأسلوبه :

كان لمعارف الجاحظ الواسعة وثقافته الجامعة وإلمامه بما حوته الكتب
الإسلامية والدخيلة من العلوم والفنون والطبيعات والألحيان والفلسفة والحكمة
والآدب، أكبر الأثر فى نفسه أولا وأسلوبه ثانيا.

فقد مزج كل معارفه بعضها ببعض، بعد أن نسقها ونظم أشاتها واستخلص
منها طائفة خاضعة لإرادته، يستنبط منها ما أراد ويستخدمها كيفما يشاء؛ ثم اتخذ
له طريقة طريقة فى التصنيف تحبب القراء فى المطالعة وتغريهم بالاستطلاع، ولم
تكن تلك الطريقة مألوفة، بل ابتكرها ابتكاراً وانتحلها انتحالا، فنسبت إليه وعرف
بها فى كتابته وتصنيفه؛ وتقوم تلك الطريقة على حسن اختيار الموضوعات الشبيهة
التي لم يجنح إليها الكتاب من قبل، أو الموضوعات التي لا يخطر على البال التأليف
فيها - وسهولة العبارة وانسجامها وكثرة التراكيب المترادفة التي تنطق بقدرته على
المزاوجة والترادف والاستطراد لأدنى مناسبة، والخروج من الجدل إلى الهزل ومن
العلم إلى الآدب والفكاهة، مما يذهب بسامة القارىء ويكسبه قوة ونشاطاً؛ ثم
التغلغل فى البحث حتى يصل إلى الغاية التي يريدتها والنتيجة التي قصد إليها.

وقد اقتدى به بعض كتاب عصره، فاعتبر إمام الكتاب فى العصر العباسى الثانى.

كتب الجاحظ ومؤلفاته

ليس بين كتاب العربية من أنتج إنتاج الجاحظ في التصنيف والتأليف؛ ولقد كان موقفاً في كتبه ومؤلفاته، فما وضع كتاباً إلا وأقبل الناس على اقتنائه وقراءته ودراسته، ولا يلبث أن يذاع وينشر في المدائن والأقطار العربية الإسلامية، ثم يصبح حديث الأندية العلمية والمحافل الأدبية وموضوع درس عميق في حلقات الدروس بالمساجد والمدارس، وموضوع إعجاب بالجاحظ وإكبار لعله وأدبه؛ ولقد ساعده على هذا الإنتاج معارفه الواسعة، وذهنه الصافي، وقريحته الفياضة؛ فألف في كل فن، وصنف في كل غرض؛ فقد كتب في الدين والسياسة والاجتماع والآداب والحيوان والنبات والأخلاق وغير ذلك من الموضوعات ما يربى على مائتي كتاب

وأهم تلك الكتب كتاب البيان والتبيين، ويظهر أنه صنفه في أخريات حياته؛ وهو أول كتاب جامع للأدب، وفيه كثير من الاستطراد الذي يغلب عليه في كل مصنفاته

ثم كتاب الحيوان، وفيه أكبر دليل على قوة عقله وسمو إدراكه وتحريه الحق والصواب فيما ينسب إلى الحيوان من غرائز وطباع؛ ويظهر أنه قرأ كتب أرسطو في علم الحيوان ولكنه لم يأخذ قوله قضية مسلمة، بل كان يعتمد على التجربة والمشاهدة، وكثيراً ما يهزأ برأيه وينسب إليه القصور مرة والكذب أخرى وكتاب الطفيليين والبخلاء :

قال المسعودي : « وكتب الجاحظ مع انحرافه (أي عن التشيع لأن المسعودي كان يتشيع) تجلوصاً للأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظم أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من ألفاظه أجزل لفظ؛ وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة؛ وله كتب حسان، منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها؛ لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كفى. وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء وسائر كتبه في

نهاية الكمال ، ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه ،
ويقول ابن العميد :

« كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ،

رسائل

للجاحظ رسائل ممتعة كثيرة تدل على فصاحته وتفتته في اختراع المعاني ،
وقدرته على أن يجعل لكل رسالة موضوعاً علياً يسهب فيه ويطنب ، ويتهم وينجد ،
ويغوص فيه إلى الأعماق فيأتي بدرره ولآله ؛ ولا يزال هذا شأنه حتى يتناوله من
جميع أطرافه تناوولاً لا يترك شاردة ولا واردة من مباحثه وأغراضه حتى
يستوعبها بحثاً واستقراء ؛ فهو بذلك إمام الكاتبين وقدوة الباحثين

وإنك لترى الصغير من الأمور يتناوله الجاحظ بالكتابة ، فإذا به قد خلق
فيه عظيماً ، واشتق منه جليلاً ، فغير رأيك واعتقادك ، ورسمه في ذهنك رسماً
يخالف صورته الأولى في نفسك ؛ وعلى العكس من ذلك إذا أراد تصغير
العظيم ، فإنك لا تلبث أن تشك في صدق معرفتك وخطأ فكرك . ولا شك أن
ذلك وليد علمه وأدبه وقدرته على الحجة والافتناع

ومن قرأ رسالته في الحسد ، ورسالة الترييع والتدوير ، ورسالته في الغناء
وغير ذلك من الرسائل يجدها كلها ناطقة بصحة ما قلناه

وقد يوجز فإذا بايجاز اللفظ وإطناب في المعنى ، وإذا بالعبارة القصيرة تنطق
بمعان كثيرة : فقد كتب مستنجزاً وعداً :

« أما بعد فقد رسفنا في قيود مواعيدك ، وطال مقامنا في سجون مطلقك ؛ فأطلقنا
(أبقاك الله) من ضيقها وشديد غمها بـ (نَعَمْ) منك مشمرة أولاً مريحة ،

فقد جمع في تلك الأسطر الثلاثة كل المعاني التي يمكن أن تقوم بالذهن في
هذا الموضوع ، مع صدق التمثيل ومرارة التأنيب وتصوير الألم ، وطلب الفصل

إما بلا مريحة أو نعم مشمرة .

وفي هذا القدر كفاية .

أسلوب الجاحظ

لمرئى بن عبد الوهاب حمودة

المدرس بكلية الآداب

هذه هي المحاضرة التي ألقاها الأستاذ عبد الوهاب حمودة المدرس بكلية الآداب ، في أسبوع الجاحظ الذي أقامته الجامعة المصرية في الشهر الماضي بقاعة الجمعية الجغرافية للمسكبة ، ونحن ننشرها هنا احتفاءً بها ، ولصلتها بمنهج الأدب للجنة التوجيهية الذي نشره ، والأستاذ حمودة من أبناء دار العلوم الذين لم مكانة ممتازة بما يقدمون في الأدب العربي من مباحث جديدة وآراء سديدة .
وقد كان لابناء دار العلوم في أسبوع الجاحظ هذا ، وفي أسبوع المتنبى الذي أقامته الجامعة في العام الماضي ، جولاتهم الموفقة في الكشف عن نواح جديدة في الأدب العربي نذكر لهم بالثناء والتقدير .
والتحريز ،

أسلوب الجاحظ مرآة صافية لطبعه . وصورة ناطقة لمزاجه ، ورسم وضّاح لألوان ثقافته .

سَجَل فيهِ خطرات عقله ، ودَوَّن فيهِ سَبَحاتِ ذهنه ، وسكَب فيهِ مكنونَ نفسه ، وحَفِظ فيهِ أنماطَ حياته ؛ فلا تكاد تقرأ فصلاً في رسالة من رسائله . إلا تمثّل لك بعينه الجاحظتين تنظران إليك بنظراتٍ فيها جدٌّ مشعشع بالهزل ، وحدة مشوبة بالظرف ، تحتهما إبتسامة ساخرة حلوة أحياناً ، ومريرة موجعة أحياناً أخرى

عرف الجاحظ في أسلوبه بخصائص لم يسبق إليها . وبأخرى سبقه غيره إليها ؛ فهو في الأولى مبتدع مخترع ، وفي الثانية مقلد متبّع .
أما الخصائص الأولى التي له فيها فضلُ السبق ونفَرُ الابتداع فهي :

الخاصة الأولى

مزجه الحقيقة الجافة بالفكاهة الحلوة ، والجِدَّة المسَم بالضحك المؤنس ، والبرهان المقنع بالتهكم الموجه . سبب ذلك هتين يسير :

(١) كان الجاحظ قصيرا . جاحظ العينين ، أسود الوجه ، دميم الخلقه ، شيطاني المنظر ؛ وهو يعلم من نفسه كل هذا . ومن دأب أمثال هؤلاء . — دميم الخلقه الذين ينغمسون في غمار الحياة — أن تكثر فيهم الدعابة ، وتشيع فيهم الفكاهة ، لأنهم عرضة لها في كل حين ؛ فلا بد لهم إذن من سلاح قريب يتقون به ما يصيبهم من السخرية ، ويدبرون به الفكاهة والدعابة على من يقصدهم

وما عهدنا بالمرحوم حافظ إبراهيم ولا بإمام العبد ولا بخليل نظير وأضرابهم — يبعد . من كل من لم ينج من فدية الأدب التي يفرضها على أبنائه ، والتي يقول عنها بعض الكتاب : إنها حق للفن على الفنان ، يأخذه حيناً من نسله ، وحيناً من حواسه وخلقه ، على أن يعرضه عنها خفة في الروح ، وحلاوة في النادرة ، وجمالا في النكتة ، وحدة في الذهن

وهذه هي كل أركان السخرية السائغة ، وعمد التهمك المستنك .

أتى إلى الجاحظ يوماً ثقيلاً فقال له : قد سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمني منها . قال الجاحظ : نعم . فقال له الثقيـل : إذا قال لي شخص : يا ثقيـل الروح ! فأى شيء أقوله ؟ فقال له الجاحظ : قل له : صدقت يا هذا ولم تكذب ! وروى ابن عساكر أن الجاحظ قال : رأيت جارية ببغداد في سوق النخاسين ينادى عليها ، فدعوتُ بها وجعلت أقلبها ، فقلت لها : ما اسمك ؟ قالت : مكة . قلت : الله أكبر ! قد قرب الحج . أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود ؟ قالت : إليك عني ، أولم تسمع الله يقول : « لم تكونوا بالغية إلا بشئ الأنفس » ؟

وقال مرة : ما أخرجني أحد مثل امرأة رأيته في مدينة العسكر ببغداد ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلي كلي معنا . فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

هكذا كانت روح العصر : دعابة فاشية حتى في نسائه ، وقلة مبالاة مع خفة في الروح ، ولطف في الحس ، وطلاقة في التفكير

(ب) وكان الجاحظ يستخدم هذا النوع من التهكم لونا من ألوان الحجة ، وضربا من ضروب البرهان ، وطريقا من طرق الإقناع ؛ وذلك هو أسلوبه الذى سلكه فى رسالة « الترييع والتدوير » ؛ فإنه أراد أن يكشف القناع عن جهل أحمد بن عبد الوهاب ، وبين غروره وطول ادعائه لأصناف العلم ، ويصور عيوبه التى انغمس فيها ، ويبدى سوءاته التى عرف بها ؛ فانخذ لذلك أسلوب التهكم ، وطريق الهزل ؛ متفتنا مبدعا ؛ فلا يكاد يخرج فى السخرية بالرجل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقا ، فيصغره فى عيون الناس أولا ، ثم يصغره فى عين نفسه ثانيا .

فبينما هو يسخر من آداب نفسه ، وصفات عقله ، ومحاسن علمه ؛ إذا به ينتقل إلى الاستهزاء بجماله الفاتن ، وحسنه البارع ، فيقول :

« ... وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟ وأى أمرك ليس بغاية ؟ وأى شئ منك ليس فى النهاية ؟ وهل فىك شئ يفوق شيئا أو يفوقه شئ ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان أحسن ، ولو كان كذا لكان أتم ؟

« وهل للغواوى مثل غيرك ؟ وهل للباح رجز إلا فىك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بكرك ؟ ،

وما هى إلا فقر حتى تبدل الحال من وصف الجمال إلى الاستهتار والاعتذار ، ثم ينتقل إلى المعاياة بالأسئلة ، والمقايسة بالعظماء من المتقدمين ، والمعاجزة بالمعاصرين المشهورين ، على سبيل الهزء والسخرية ؛ فيقول :

« ... فيا عقيدَ الفلك ، كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهَيُولَى ، كيف أصبحت ؟ ويانسر لقمان ، كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ، ويا أسن من لبْد ، حدثنى : كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم . ومذ كم مات عَوْج ، ومتى تبلبت الألسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم فى السفينة ! وأشهد أنك تخاشن عمرو بن بجر الجاحظ وتعاقله ؛ ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنى مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظام . وتستبرد الأصمعى ، وتبارز أبا الحسن على ... ! ،

وهكذا يسير في رسالته ، بأسلوب هو واضح أسسه ، وناسج برده
ونرى هنا من المناسب أن نقول : إن كثيرا من المتأدين يظنون أن ابن زيدون
هو أول من استخدم الأسلوب التهكمي في رسائله ، كما في رسالته الهزلية ،
ولكن من الحق أن ابن زيدون لم يكن مخترعا ، بل مقلدا محاكيا ؛ فالجاحظ
أستاذه ، وابن زيدون تليذه ؛ غير أن الجاحظ لم يسف في الهجاء ولم يمس به ،
بل كان قوله كله تهكما ، يضحك منه حتى المكتوب إليه ، وليس فيه من الشدة
والقسوة ما يبعث في نفس القارئ الرحمة على من كتب إليه ، أو الحق على الكاتب
له ؛ بل كل ما يرمى إليه الجاحظ أن يشرك القارئ في ضحكك ، ويقاسمه في سخريته
ومن أسباب جمع الجاحظ بين الجد والهزل في أسلوبه ، حرصه على أن يفهم
الناس معناه ، واحتفاله برضى العامة عليه ، وإقبالهم على قراءة ما يكتب ، ورغبتهم
في سماع ما يُلقَى ، وهو العليم بطباع الناس وغرائزهم ، وأهوائهم وأذواقهم ؛
فقصده أن ينسبهم برقة دعابته ، وحلاوة فكاهته ، إسرافه في أسلوبه ، وإسهابه
في جده ؛ وهو الذي يقول في كتاب الحيوان (ج ٦ ص ٦) : « على أنى ربما
وشحتُ وفصلت فيه بين الجزء والجزء ، بنوادر كلام ، وطُرَف أخبار ، وغرر
أشعار ، مع طُرَف مضاحك ؛ فأبى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة ،
والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ؛ وما غايتنا من ذلك
كله إلا أن تستفيدوا خيرا ،

وقال في صدر كتاب البخل (ص ٥) : ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء :
تبينُ حجة طريفة ، أو تعرفُ حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت
في ضحكك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت ،

الخاصة الثانية :

من خصائص أسلوب الجاحظ تأثره كثيرا بأساليب الخطابة والمنطق .
ومظاهر ذلك التأثر بادية في وجوه عدة منها : التكرار الذي به يفصح عن
المعنى الواحد بعدة عبارات ، وهو نفسه يرى هذا التكرار من خصائص الخطابة

حيث يذكر في كتابه البيان والتبيين (ص ٥٨ ج ١) :
 « وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد
 المعاني عيًّا ،

وهذا عينه هو الذي ذكره أرسطو في كتاب الخطابة (الفصل الحادى عشر
 من الكتاب الثالث ص ٣٣٧) ترجمة تيودور بلكى مع تحليل هوبز ، تكلم
 أرسطو في هذا الفصل على الفرق بين الأسلوب الكتابى والأسلوب الخطابى ،
 فذكر من تلك الفروق ما ترجمته :

« إن التكرار معيب فى الكتابة ، على حين هو ضرورى وخاصة من خصائص
 الخطابة ، لأنه فيها نوعٌ من الإسهاب ، وفى الأسلوب الكتابى تفكك الجمل
 وعدم ربطها سيئة من سيئات الكتاب ؛ وهو فى الخطابة حلية من حلاها ،
 لأنه يساعد على التمثيل فى الإلقاء والإسهاب فى البيان ،
 ومن الغريب أننا نشاهد هاتين الخاصتين فى أسلوب الجاحظ ، فهو يكرر
 كثيراً ، ويفصل أحياناً إذا كان المقام مقام عاطفة وانفعال ؛ يقول مثلاً فى
 رسالة الحاسد والمحسود :

« وإن كان المحسود عالماً قال الحاسد : هو مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ،
 ومتبع نيل ، ما يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الخيل .
 « ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً وإن كنت مصيئاً ؟ أو يرشدك إلى
 صواب وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبه عنك ، أو قصر فى عيبه لك ؟
 « هو كالكلب الكلب ، والنمر الحرب ، والسم القشب ، والفحل القطم ،
 والسيل العرم ، إن ملك قتل وسى ، وإن ملىك عصى ونهى ، حياتك موته
 وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب
 فىك كل عدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من ييفضك ، ولا ييغض من الناس
 إلا من يحبك ، عدوك بطاته ، وصديقك علاوته ،

أليس الجاحظ فى كلامه هذا أشبه شئ بالخطباء الذين يمتد نفسهم الخطابى
 فتراهم يندفعون فى الكلام اندفاعاً ، فيظهر حينئذ السجع القصير الفقرات ، والجمل

المتقطعة الصلات ، شأن الخطباء إذا انهمروا كالسبل : يصبون على خصوصهم صنوف الويل ؛ فهناك ترى الوثبات العاطفية ، وتسمع الرنات الموسيقية ، ويكثر التكرار ، ويشيع المترادف ، فتزداد المعاني روعة ، والألفاظ انسجاما ولكن ما للجاحظ قد غلى مرجه في هذه الرسالة ، رسالة الحاسد والمحسود ، وتقلب عليه العاطفة ، وهو في رسائله الأخرى عالم جدلي ، ومتكلم منطقي ؟ الجواب على ذلك هو أن الجاحظ نفسه تذوق مرارة الحسد من معاصريه ، وتشكى هذا الداء من مناظريه

« فقد ذكر أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسباع تصغي إليه ، ولا الإرادات تيمم نحوه ؛ ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة . وأقل فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل ابن هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ، ومن قد طارت أسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها . لا شيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما بداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ، ومنافسته على المناقب التي يخص بها ويعنى بتشيدتها ،

فهو إذا وصف الحاسد فإنما يصف الواقع ويعبر عن النفس

اسمع إليه وهو يقول في وصفه : « وما لقيت حاسدا قط إلا تبين لك مكثومه بتغير لونه ، وتحاوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإعراض عنك ، والإقبال على غيرك ، والاستئثار لحديثك ، والخلاف لرأيك ، أفلا يصح بعد هذا أن نقول : إن الجاحظ من أنصار الأدب الواقعي ؟ لأنك لا تجد في أسلوبه مبالغة ولا احتفاء بزخرفة التشبيهات ووشى الاستعارات ، وإذا أردنا أن نتبين الفرق بين تأثير الجاحظ بخطابه أرسطو في أسلوبه ، وبين كاتب آخر لم يتأثر بها . فلنقرأ ما كتبه ابن المقفع في الحاسد أيضاً حيث يقول :

« ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك . ألا تكون حسوداً ؛ فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لومه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخطاء ، فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خيراً ما تكون حين تكون مع

من هو خير منك ؛ وأن غُناك أن يكون عثرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك في الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . . وهكذا .

فما أشبه ابن المقفع بحكيم يستمد من عقله حكمته ، وفيلسوف يزن أفكاره وآراءه في تودة وترو ؛ كأنه مرزبان من مرازبة الفرس في طيلسانه الفضفاض وقلنسوته المكوّرة

ومن مظاهر تأثر الجاحظ أيضاً بالخطابة ، شيوع الاستدلال بما يعرف في الخطابة بالقياس المضمر . ثم بما يعرف بالتمثيل .

نجد ذلك واضحاً جلياً في رسائل الجاحظ وأسلوب استدلاله

والقياس المضمر عندهم - كما جاء في البصائر النصيرية - هو ما حذف مقدمته الصغرى أو الكبرى أو نتيجة ؛ إما لظهورها ، وإما للاستغناء عنها . ومواد هذا القياس : المشهورات ، والمقبولات ، والمظنونات .

أما التمثيل فهو إثبات حكم جزئى لجزئى آخر لمشابهة بينهما ، وهو ما يسميه الفقهاء قياساً .

فالقياس المضمر قد عرفه الجاحظ واستخدمه في رسائله ، والتمثيل كذلك عرفه واستخدمه في رسائله .

أما معرفته للقياس المضمر فقد نقله الجاحظ . وسماه المذهب الكلامى .

فالمذهب الكلامى فى البديع يجمع البديعون على أنه من وضع الجاحظ وتسميته ، وقد اعترف بذلك ابن المعتز وابن أبى الأصبع وابن حجة وغيرهم

أقول : والمذهب الكلامى هو بعينه القياس المضمر ، إذ عرفوه بأن يورد المتكلم كلامه على طريقة أهل الكلام ، وطريقة أهل الكلام أن تكون الحججة بعد تسليم المقدمات فيها مستلزمة للمطلوب . ولكن لا يشترط هنا الاستلزام العقلى ، بل هو مبنى على المشهورات والمظنونات ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطائية المفيدة للظن ، والمؤدية إلى الإقناع . هذا هو تعريفهم للمذهب الكلامى

الذي عرفه الجاحظ ، وهو أول من سماه ؛ غير أن الجاحظ يقول : إن المذهب الكلامي ليس منه في القرآن شيء ؛ ووافق ابن المعتز ، ورد عليه ابن أبي الأصبع وقال : إن القرآن مشحون به ، من ذلك قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، ففى هذه الآية إشارة إلى قياس استثنائي ذكرت شرطيته وحذف منه الاستثنائية والمطلوب ؛ لظهورهما . وملازمة الفساد بتعدد الآلهة من الأمور المشهورة الصادقة بحسب العرف ، وهي يكتفى بها في الأمور الخطائية .

ومثلا له أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وتام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما أعلم .

إذا عرفنا ذلك ، وعرفنا أن الجاحظ استخدمه في أسلوبه وهو ينكر وجوده في القرآن ، فمن أين أتى به الجاحظ ؟

الجواب عن هذا السؤال سهل متى انتقلنا إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، فوجدنا المذهب الكلامي كما عرفه الجاحظ وسماه ، هو بعينه القياس المضمر الذي ذكره أرسطو وعرفه .

وقبل أن نترجم كلام أرسطو ، نذكر أمثلة للجاحظ من رسائله فيها قياس مضمر أو مذهب كلامي على رأيه .

ذكر الجاحظ في كتاب العثمانية :

« والحجة العظمى للقاتلين بتفضيل على ، قتله الأقران ، وخوضه الحروب . وليس له في ذلك كبير فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم — لو جب أن يكون للزبير وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة ما ليس لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا ، ويقول أيضا في كتاب حجج النبوة :

« ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى في الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ، ما اتفق بينهما شراء أبدا ، ولا بيع أبدا »

ثم يقول بعد ذلك : « وإذا وقع التبائع ، وقع التراجع ، وإذا وقع التراجع ، وقع التعايش ... ، وغير ذلك مما لا يزيد أن نطيل فيه .

أما عبارة أرسطو في كتاب الخطابة ، فقد قال في الفصل الثاني من الكتاب الأول :
« إن البراهين التي تستخدم في الخطابة تقوم على أمرين :

« الأمر الأول القياس المضمّر Enthemen

« الأمر الثاني التمثيل ، والمنطق تقوم برأيه على الأقيسة أولاً ، وعلى الاستقراء ثانياً .

« وما القياس المضمّر إلا نوع من الاستدلال القياسي ، وما التمثيل إلا نوع من الاستدلال الاستقرائي ، غير أنه محذوف في كليهما ما هو غير ضروري للسامع ، وما هو زائد عن الحاجة غير لازم ؛ ومفروض أن السامع دراية به ، كل ذلك نجنباً للإسهاب المضيع للوقت ، وإرضاء لكبرياء السامع بتركه يسد بنفسه النقص الذي حدث بحذف الأمور التي يسهل عليه فهمها وإدراكها ؛ وفي هذا تودد للسامعين ، وتجنب إلى نفوسهم ، وهو باب من أبواب الإقناع الخطائي . .

هذا هو كلام أرسطو وكلام شراحه

و لماذا يكون القول بأن الجاحظ عرف كتاب الخطابة لأرسطو واسترشد به قولاً غريباً ؟ ومنطق أرسطو قد عرف بين المسلمين من عهد ابن المقفع ، وكانت الخطابة جزءاً من المنطق — كما ذكر ذلك ابن خلدون ودائرة المعارف الإسلامية ، وأبو نصر الفارابي في كتابه إحصاء العلوم . وقد ذكر الجاحظ (صاحب المنطق) مراراً في كتابه الحيوان وفي كتابه البيان والتبيين : بل في رسالته التي عنوانها الرد على النصارى ، وذكر أيضاً في كتابه الحيوان أن من العلوم التي ترجمت علم المنطق

وبعد هذا وذاك ، فهناك ظاهرة قوية تدل دلالة واضحة على تأثير الجاحظ بخطابة أرسطو ، أو على الأقل تدل على استرشاده ببعض قواعدها ، وذلك أن الجاحظ كثيراً ما دعا الكتاب إلى العناية بالسامعين ، وهو المبدأ الذي يدعو

إليه أرسطو في خطابه. ذكر ذلك الجاحظ في البيان والتبيين ص ٣ ج ٢ ، وذكر ذلك أرسطو في الفصل الأول من الكتاب الأول ص ٨ ؛ بل لقد غالى الجاحظ في المبدأ ، واستحسن من الخطيب أن يسوق النادرة في ثوبها الذي فيه رويت ، وبأسلوبها الذي به نقلت ؛ ولو كانت ملحونة مشوهة

يقول في ص ٨١ ج ١ البيان والتبيين

« ومتى سمعت (حفظك الله) بنادرة من كلام الأعراب ، فأياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فأياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تنخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها ،

وهنا يعترضنا سؤال مخرج في ظاهر القول ، مشكل في بادىء الرأى ، وهو : إذا كان ذلك كذلك . فلماذا أنكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن يكون لليونان خطابة . حيث يقول : « ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكى . اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه ، فللجواب عن هذا السؤال في نظرنا نقول :

أولاً : إن الجاحظ حين قال ذلك القول كان بصدد الرد على الشعوية الذين قالوا عند طعنهم على العرب : « والخطابة شئ في جميع الأمم ؛ فهذه يونان ورسائلها وخطبها وحكمها ، فوقف الدفاع عن العرب والرد على الشعوية ألجأه إلى أن ينكر أن في اليونان خطابة

ثانياً : إنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونان ، وإنما اطلع على أصول وقواعد للخطابة : فهو على حق حين ينكر ما لم يره

ثالثاً : إنه رمى صاحب المنطق بالعيب في القول ؛ لأن الترجمة التي قرأها لكتبه ترجمة سقيمة في أغلب الظن ، تدلحفاً على أن صاحبها بكى اللسان ، وهو

نفسه قد انتقد التراجم والمترجمين في كتاب الحيوان حيث يقول : « ومتى كان ابن البطريق وابن ناعمة وابن المقفع . مثل أرسطو ؟ ثم ما لنا لا نقف عند قول الجاحظ السابق عن أرسطو : « مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه ، فأين عرف الجاحظ عن أرسطو ذلك إذا لم يكن عرفه من كتاب الخطابة الذي فصل أرسطو فيه حقا الكلام تفصيلا ، وبين فيه خصائص المعاني تبينا ، ووضح الأساليب توضيحا ؟

وهناك أدلة أخرى تقوى عندنا فكرة أن الجاحظ تأثر تأثرا قويا بخطابة أرسطو ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن كثرة البيان والتبيين صدى لتلك الخطابة ؛ لأنه ألف في عصر لم تكن فيه إلى الخطابة حاجة ، إذ كانت سوقها قد كسدت وسوق الكتابة قد نفقت ؛ فالرأى الذي أرثنيه وأطمئن إليه ، هو أن الجاحظ قد عرف أرسطو ومنطقه ، والخطابة جزء منه ، إلا أن معرفته بها غامضة مبهمه ، إذ لم تكن إلا عن قراءة لكتب أرسطو في دكا كين الوراقين ، ثم مفارقة لها بعد ذلك ؛ هذا إلى أنه نفسه يعلن في صراحة أن كتب المنطق وغيرها من معارف اليونان لم تترجم ترجمة صحيحة واضحة ، وأنها لو عرضت على العربي البليغ لا يفهمها حق الفهم (ص ٤٥ ج ١ الحيوان)

« ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره ،

ooo

الآن وقد طال بنا السّفر فلم نذكر مثالا للتمثيل الذي استخدمه الجاحظ في رسائله ، نقول :

كان الجاحظ يستخدم التمثيل إذا أعوزه الدليل ، وضاعت عليه سبل الحجة ، وكان الموضوع في ذاته تافهاً وهو يريد أن يرفع من شأنه ويعلى من قدره . من ذلك رسالته في فخر السود على البيض . بديهي أن تفضيل السود على البيض ليس بالأمر الهين اليسير ، وليست براهينه طيعة قريبة المنال ، فطرفا المناظرة ليسا من درجة واحدة

هذا والجاحظ لا ننسى انه أسود وجدّه أسود، فهو لا بد متقص لليض، متعصب للسود، فإذا يصنع إلا أن تسعفه مهارته الفنية في الجدل، وثقافته الواسعة، وعلمه الغزير؛ فتراه يقول:

«... إن لقمان الحكيم منهم، ومنهم سعيد بن جبير، وبلال الحبشي الذي يقول فيه عمر بن الخطاب: إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا، وهو ثلث الإسلام؛ ومنهم المقداد، وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله.

وقالوا: (أى السود) ونحن أهول في الصدور، وأملأ للعيون، كما أن المسودة أهول في العيون وأملأ للصدور من الميضة، وكما أن الليل أهول من النهار، ودحم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أنفع وأتمن وأبقى، وكل حجر وكل جبل إذا كان أسود، كان أصلب صلابة وأشد يبوسة، والأسد الأسود لا يقوم له شيء، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع؛ والسواد ملازم للعين، وإذا اعتلت فخيف عليها لم يكن لها دواء خير من القعود في الظلمة وفي يد صاحبها خرقه سوداء؛ فالسواد للأبصار، وخير ما في الإنسان البصر..

فأتم ترون أن الجاحظ في هذه الرسالة كان مشغولاً برصف الأدلة، ونحت الأمثلة، فلم يفكر في موسيقا الألفاظ، ولا وزن العبارات، لأنه يريد أن يغمر خصمه بالأدلة والأمثلة، خشية أن يتغلب عليه، أو أن يفلت الموضوع من يده، لأن طرفه ضعيف وهل هناك من يفضل السود على البيض، إلا أسود متعصب؟

ثالثاً — من خصائص أسلوب الجاحظ قصر الفقرات، واتزان العبارات، والموسيقا والازدواج؛ فنثر الجاحظ لا يلذ العقل وحده، وإنما يلذ العقل والشعور والأذن، وأكثر ما يشاهد ذلك في رسائله الإخوانية، أو في مفتاح كتبه وصدر تأليفه، وهو أحياناً يعتمد هذا الاتزان وإن لم يتكلفه.

الخاصة الرابعة

الاقتتان في الأسلوب : من خبر إلى استفهام ، ومن استفهام إلى تعجب ، ومن تعجب إلى أمر . وهذه الخاصة والتي قبلها أثر من آثار الأسلوب القرآني : قال تعالى :

« إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة ؟ أعملوا ما كنتم ، إنه بما تعملون بصير . » ، خبر ، فاستفهام ، فأمر ، فخبر .

ويقول الجاحظ في رسالة الحاسد والمحسود :

ولقد كان أخوة يوسف علماء حلما ، ولدهم الأنبياء ، نفاخوا العهود ، وألقوه في غيابة الحب ، وجاموا على قيصه بدم كذب ؛ فظلمهم يوسف ظلما أباهم ؛ طمعا أن يخلوهم وجه أبيهم ، وظنوا أن الأيام تسليه ، وحبهم من بعده عنه يليه ؛ فأسالوا عبرته ، وأحرقوا قلبه ، فإذا أحسست (رحمك الله) من صديقك بالحسد ، فأقل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مسالته ؛ وحسن سرّك منه ، تسلم من شذى شره ، وعوائق ضره ؛ وإياك والرغبة في مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاورته .

فما هذا العناء ، وما هذا الداء العياء ، كأنك لم تقرأ المعوذة . أطلب (ويحك) أثرا بعد عين ، أو عطرا بعد عروس ، أو تريد أن تجتني عيبا من شوك ، أو تلمس حلب لبن من حائل ؟ إنك إذن لأعيا من باقل ، وأحق من الضبع . إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك ، وتعوج بعد ما قومناك ، وتبلد بعد ما تفنناك ؛ فنعوذ بالله من الخذلان ، إنه لا يأتيك ، ولكنه يناديك ؛ ولا يحاكك ، ولكنه يوازنك ، أحسن ما تكون عنده حالا ، أقل ما يراك مالا ، وأكثر ما تكون عيالا ، أعظم ما تكون ضلالا ؛ وأفرح ما يكون بك ، أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا ، وأبعد ما تكون من الناس حمدا . . .

وهنا تغلب عليه طبيعته الساخرة المتهكمة . فيميلُ إلى الضحك والاستهزاء .
فيقول :

« فإذا كان الأمر على هذا ، ف تجاوزة الأموات ، ومخالطة الزمنى ،
والاكتنانُ بالجدران ، ومص المصران . وأكل القردان — أهون من معاشره
مثله ، والاتصال بجبله ! »

الخاصة الخامسة

من خصائص أسلوبه الاستطراد ؛ وذلك أثر من آثار اطلاعه الواسع ،
وثقافته المتعددة

الخاصة السادسة

استقصاؤه وتفغله في وصف ما يُعنى بشرحه أو الاحتجاج له ؛ فهو يتبع
المعنى ويقبله على وجوهه المختلفة ، ويظّل يولده حتى لا يترك فيه قولاً لقائل
كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

« . . . فإن كنتُ اجترأتُ عليك (أصلحك الله) فلم أجترئ : إلا لأن
دوام تغافلِكَ عني شبيهٌ بالإهمال ، الذى يورث الإغفال ؛ فإن كنتَ لاتهب
عقائى (أيدك الله) لخدمة سلفت لى عندك ، فهبه لآياديك عندي ؛ فإن النعمة ،
تشفع فى النعمة . وإلا تفعل ذلك لذلك . فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك
لحسن الأحذوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من
استحقاق العقوبة . »

أما الخصائص التى يشرّك فيها غيره ، فهى : السهولة ، والاعتراض بمثل
قوله : (أبقاك الله) ، (أعزك الله) . ثم الإسهاب ، ثم السجع ؛ لأن هذه
كلّها من صفات الأسلوب الكتابى فى عصر الجاحظ : نشاهدها عنده كما
نشاهدها عند غيره .

وبعد فأسلوب الجاحظ من نوع أدب الفكر لا أدب الشعور والعواطف ؛
قوامه الترتيب المنطقي ، والتفسيق العقلي ، والتنويع الفكري ؛ فهو يمهّد لكل
شيء ، ثم يستبطن من تلك المقدمات ؛ ثم يُردف ذلك بحمل مترادفة ؛ ليزداد
المعنى وضوحاً ، وتزداد الفكرة بياناً . هذا في رسائله العامة ، أما في رسائله
الإخوانية ، أو حين يخاطب الخاصة ، فتأتق وتزويق ، ونقاء للألفاظ ،
وحرص على الموسيقى ، وتوازن في الجمل ، وسلاسة في العبارات ، وسجع
قصير الفقرات ؛ فهو أديب العلماء ، وعالم الأدباء . ولنختم محاضرتنا بقبس من
رسالته إلى إبراهيم بن المدبر حيث يقول :

« ماضاً لي نهارٌ ولا دجاليل مذ فارقتك ، إلا وجدت الشوقَ إليك ،
قد سحزّ في كبدي ؛ والأسف عليك ، قد أسقط في يدي ؛ والنزوع نحوك ، قد
خان جلدي ؛ فأنا بين حشاً خافقة ، ودمةٍ مُهرّاقة ، ونفس قد ذُبُلت بما تجاهد ،
وجوانح قد بليت بما تكابد ؛ وذكرْتُ وأنا على فراش الارتماض ، ممنوعٌ من
لذة الاغتماض ، قولَ بشار :

إذا هتف القُمرى نازعنى الهوى بشوق . فلم أملك دموعي من الوجد
أبي الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كما المزن شيبَ مع الشهد
لقد كان ما بيني زماناً وبينها كما كان بين المسك والعنبر الوردى

عبد الوهاب صمودة



أحمد بن أبي دؤاد

بفلم أحمد هاشم عطية

المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية

هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد بن فرح بن مالك الإيادي ، رجل من نزار ، قاضى القضاة زمن المعتصم والوائق فى الدولة العباسية ، وأحد أساطين المتكلمين والبصر بالفقه والكلام ومسائله والأدب وأخبار الناس ، وكان أخل المتكلمين إقداما على القول بأن القرآن مخلوق ، تراكا للهو ، ذا مروءة عربية وتعصب لمذهبه . ولد سنة ١٦٠ هـ بالبصرة كما ذكره الخطيب البغدادى وابن خلكان ، وقيل إن أصله من قرية بقنسرين ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ فى خلافة المتوكل ببغداد . وسواء أولد بالبصرة أم بقرية من قنسرين ، فإنه تلقى العلم والفقه على العلماء بالبصرة ، وصحب هياج بن العلاء السلى ، وزرقان غلام الهذيل المحدث ، وأخذ عن واصل بن عطاء علم الكلام ، وتضلع من علم الكلام فصار إلى الاعتزال ، وحمل المأمون على القول بخلق القرآن . وجلس لامتحان العلماء فى هذه المقالة إلى أيام الواثق وكان نادرة عصره فى علوم الفقه والكلام والأدب ، وفيه يقول أبو العيناء :
 « مارأيت رئيسا قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد ، وكان شاعرا مجيدا ، وفصيحا بليغا ، عالما بالأنساب والسير وأخبار الناس . » ذكروا أن المأمون سأل جلساءه عمن بايع ليلة العقبة من الأنصار ، فلم يدر أحد عدتهم ، فعدهم أحمدوا أحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأنسابهم ؛ فقال المأمون : إذا استجلس الخليفة فاضلا فمثل أحمد . فقال ابن أبي دؤاد : إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذى يفهم عنه ويكون أعلم بما يقوله منه . روى له دعبل الخزاعى فى كتابه الذى جمع فيه أسماء الشعراء أبياتا حسانا ؛ وكان ابن أبي دؤاد يقول : ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والإخوان ؛ فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته . وكان

الضحاك الشاعر المشهور يقول لبعض المتكلمين : ابن أبي دؤاد عندنا لا يعرف اللغة ، وعندكم لا يحسن الكلام ، وعند الفقهاء لا يحسن الفقه ، وهو عند المعتصم يعرف ذلك كله .

وكان ابتداء اتصاله بالمأمون أنه قال : كنت أحضر مجلس القاضي يحيى بن أكرم مع الفقهاء ؛ وإني عنده يوماً إذ جاءه رسول المأمون ، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : انتقل إلينا أنت وجميع من معك من أصحابك . فلم يجب أن أحضر معه ، ولم يستطع أن يؤخرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إلى إذا شرعت في الكلام ، ويتفهم ما أقوله ويستحسنه ، ثم قال لي : من تكون ؟ فانتسبت له ؛ فقال : ما أخرج عنا ؟ فكرهت أن أحيل على يحيى فقلت : حبسة القدر وبلوغ الكتاب أجله . فقال المأمون : لا أعلن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته . فقلت : نعم . ثم اتصل الأمر . وقيل : قدم يحيى بن أكرم قاضياً على البصرة من خراسان من قبل المأمون في آخر سنة ٢٠٢ هـ ، وسنه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروءات . منهم أحمد بن أبي دؤاد ، فلما قدم المأمون ببغداد في سنة ٢٠٤ هـ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعة يجالسوني ويكثرون الدخول إلى ، فاختار منهم عشرين فيهم ابن أبي دؤاد ، ثم قال : اختر منهم . فاختار خمسة فيهم ابن أبي دؤاد ، واتصل أمره

وأسند المأمون وصية إلى أخيه المعتصم قال فيها : « وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك ؛ فإنه موضع ذلك كله ، ولا تتخذن بعدى وزيراً . فلما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضياً للقضاة ، وعزل يحيى بن أكرم ، وخص به أحمد ، وكان لا يفعل فعلاً باطلاً ولا ظاهراً إلا برأيه ، والذي أصرار ابن أبي دؤاد إلى ما صار إليه هو موافقة مذهبه لما كان يذهب إليه المأمون من آراء المعتزلة ، وأن المأمون كان معروفاً بمحبته للعلم والعلماء وشغفه بالحكمة والحكمة ، بل لم ير في أبناء الملوك من تعشق العلوم الحكمة على حداثة سنه مثله ، فداخل عليه مرة إلا وألني في مجلس من العلماء والآداب ، وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد ، واقتدى به أو أرى عليه ، فطارت شهرته

في العلم والفلسفة ، إلى أن حظى بقربه أحمد بن أبي دؤاد ، فوجد فيه المأمون طلبته ، ورأى أحمد في المأمون ضالته للظهور بمذهب المتكلمين ، وجعله مذهباً رسمياً للدولة بعد أن كان هذا المذهب في البصرة نظرياً ، وأتم ما بدأ به ثمامة بن أشرس ، من حمل المأمون على أن يعتقد هذا المذهب اعتقاد حقاً ، وحمله على إظهار القول بخلق القرآن ، وعلى دعوة الناس إلى ذلك ، وعلى تعذيب المخالفين والتكليف بهم ، فاجاءت سنة ٢١٨ هـ حتى كتب المأمون إلى نائبه على بغداد إسحق بن إبراهيم كتاباً جاء فيه :

« وقد عرف أمير المؤمنين ، أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة من لا نظره ولا روية ولا استضاء بنور العلم وبرهانه - أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ؛ وقد قال تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً ، فكل ما جعله فقد خلقه . كما قال : « وجعل الظلمات والنور ، وقال : « نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وقال : « أحكمت آياته ثم فصلت ، والله محكم آياته ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه ؛ ثم انتسبوا إلى أهل السنة ، وأنهم أهل الحق والجماعة ، وأن من سواهم من أهل الباطل والكفر ، فاستطالوا بذلك وأغروا به الجهال ؛ حتى مال قوم من أهل السميت الكاذب ، والتخشع لغير الله إلى موافقتهم ، فبزعوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا من دون الله وليجة إلى ضلالهم ... »

إلى أن قال :

« فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، أوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق في أولياته والهائل على أعدائه من أهل دين الله . ولعمر أمير المؤمنين إن أ كذب الناس من كذب على الله ووحيه ، وتخرص الباطل ولم يعرف الله حق معرفته . فاجمع من يحضرك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا ، وامتحنهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون في خلق

الله وأحداً، وأعلمهم أنى غير مستعين فى عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه، فإذا أقرأوا بذلك ووافقوا فرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق، واكتبنا بما يأتىك من قضاء أهل عملك فى مسائلهم والأمر لهم بمثل ذلك .

هذا كتاب المأمون فى المحنة، وقد ذيله بأشخاص كبار فقهاء بغداد وآفة الأثر والرواية. وتم الأمر بالمحنة التى طال ضررها. واشتهر من بين رجالها الإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنه. وما كان للمأمون أن يكتب كتابه هذا ويحمل الناس على غير ما يعتقدون وإكراههم على أمر لم تمض به سنة ولم يجدوا فيه برهاناً من أنفسهم، مع أن الإكراه على أصل الأصول وهو الدين الخالص قد أباه الشرع ونهى عنه فى غير موضع من التنزيل الكريم، قال جل وعلا: «لا إكراه فى الدين»، ويقول جل شأنه: «أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين، ولكن سكرة الدولة وانقلاب الرأى عقيدة بالتسليم والتقليد، وعظم الطول والقدرة، كل أولئك يحول دون الإنصاف والاعتدال غالباً

وإذا كان شعور السلف بما يترتب على الإطالة فى هذه المقالة من الخطر الشديد على الدين والقرآن - قد دعا إليه انتشار الزندقة وظهور الملاحدة وتمهيج كثير من أهل الشبهات على نواحي القرآن بالتأويل الباطل والتعليل المردود، فلنحن أحق منهم بإغلاق هذا الباب وسداد هذه الثغرة، لأن ما كان فى زمنهم من الفساد وسوء التأويل إذا قيس إلى ما فى زماننا يعد كالمثلثى الزائل، وأولى بنا أن نصرف عنان القول إلى ماهو أجدى علينا، من مطارحة الثقافات المتنوعة التى تقوم بشئون الاجتماع من تهذيب وتربية وتعليم ودارسة الآداب المختلفة والعلوم العملية النافعة، ولكن ابن أبى دؤاد بلغ به التعصب لمذهبه - مع ما اتصف به من وفرة العقل وكبر الفهم - أنه كان يغرى الخلفاء بمن خالف مذهبهم. ويسعى لديهم بما يجعل نكاحهم وقد أثر عنه من ذلك ماشوه وجه حياته، وكشف شمس فضائله؛ فقد أغرى المعتصم بمحمد بن سعيد وهو من وجوه المعتزلة، لمخالفته إياه فى بعض مذهبهم، وقال إنه شعوبى زنديق، فحبسه المعتصم، ثم بانث له

برأته ، أولوائق من بعده ، نخلي سبيله ، وأخرج أحمد ابن حنبل من محبسه أيام
المعتصم إلى مجلس جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة وعلى رأسهم ابن أبي دؤاد ،
فلما استقر بهم المجلس ، قال ابن أبي دؤاد : أليس لا شيء إلا قديم أو حادث ؟
قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبي دؤاد : أليس القرآن شيئاً ؟ قال ابن حنبل :
نعم . فقال ابن أبي دؤاد : فالقرآن إذاً حادث ؟ قال ابن حنبل : ليس أنا بمتكلم ... إلى
أن قال : وحكم كلام الله تعالى كحكم غيره ، فكيف لا يجوز أن يكون عليه محدثاً ومخلوقاً ،
فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً . فقال ابن أبي دؤاد : أليس قد كان
الله يقدر أن يبدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتي
بغيره ، وكل ذلك في الكتاب مسطور ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبي دؤاد :
روينا في تثبيت ما نقول الآثار ، وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد
من العقول التي بها لزم الناس الفرائض وبها يفصلون بين الحق والباطل ، فعارضنا
أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يتكلم ابن حنبل ، فأمر المعتصم بضربه وحبسه ،
فلما ولي الواثق الخلافة ذكر ابن حنبل وأمر فجئ به يرسف في قيوده ؛ ذكر
الخطيب البغدادي في تاريخ الواثق وترجمته قال : سمعت طاهر بن خلف يقول :
سمعت محمد بن الواثق الذي يقال له المهتدي بالله يقول : كان أبي إذا أراد أن يقتل
رجلاً أحضرنا ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذ أتى بشيخ مصفود مقيد ،
فقال أبي : إيدنوا لأبي عبد الله . يعني ابن أبي دؤاد وأصحابه ، فدخل الشيخ مصلاه ،
فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : لا سلم الله عليك !
فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، بئسما أدبك به مؤدبك ! قال تعالى : وإذا حييتم بتحية
فحيوا بأحسن منها أو ردوها . والله ما حييتني بها ولا بأحسن منها . فقال ابن أبي
دؤاد : يا أمير المؤمنين ، الرجل متكلم . فقال له أبي : كلبه . فقال ابن أبي دؤاد : يا شيخ ،
ما تقول في القرآن ؟ قال الشيخ : أنصفني في السؤال . فقال له : سل . فقال الشيخ : ما تقول
أنت في القرآن ؟ قال ابن أبي دؤاد : مخلوق . فقال الشيخ : هذا شيء عليه النبي (صلى الله
عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومن أتى بعدهم من أجلاء الصحابة ، أم
شيء لم يعلموه ؟ فقال ابن أبي دؤاد : لم يعلموه . فقال ابن حنبل : سبحان الله شيء لم يعلمه

النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء من بعدهم وتعلمه أنت فقطع بابن أبي دؤاد وخجل ، وقال لابن حنبل : أقتلني . فقال الشيخ : والمسألة بحالها ؟ قال : نعم . قال : فمات قول في القرآن قال ابن أبي دؤاد : مخلوق . قال ابن حنبل : هذا شيء علمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومن بعدهم من الخلفاء . أم لم يعلموه ؟ قال ابن أبي دؤاد : علموه ولم يدعوا الناس إليه . قال الشيخ : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال محمد : ثم قام أبي ، فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجله على الأخرى وهويقول : هذا شيء لم يعلمه النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء من بعدهم ولم يدعوا الناس إليه ؛ أفلا وسعك ما وسعهم ؟ ثم دعا عماراً الحاجب فأمره أن يرفع القيود عن الشيخ ويعطيه أربعمائة دينار ويأذن له في الرجوع ، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ، ولم يمتحن بعد ذلك أحداً ، رحمة الله تعالى عليه ، ولما ولي المتوكل أحيا السنة وأما البدعة ، وعزل ابن أبي دؤاد ، ثم ولده من بعده ، وضيق عليهما ، وكتب للأمصار برفع المحنة وإظهار السنة ، وأخذ المعيزة وكانوا في قوة ونماء إلى أيامه .

وكان ابن أبي دؤاد على جانب كبير من المروءة العريضة المتمثلة في سخائه الذي امتلك به قلوب الناس ورجال الأدب والعلم ، فالتف الناس حوله وهتفوا باسمه ، كما هتف الناس قبل ذلك للبرامكة الذين أعلنوا شأن الفرس بما أغدقوه على الناس وبما وسعهم به من أنواع الكرم ، فأضاف إلى علمه جوده ، فكان بذلك جديراً بما نال من الخطوة والمكانة لدى الخلفاء ، وقوى نفوذه ، وكان بحكم عريته يتعصب للعرب ويدفع عنهم - ما وجد إلى ذلك سبيلاً - غنت الفرس والأتراك ؛ فقد خلص أبا دلف العجلي من يد الأخشيد وقد كاد يقتله ، وخلص خالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني من يد المعتصم ، ووقف السفراء على بابه وفيهم أبو تمام ، وطال وقوفهم ، فلما دخلوا عليه قال لأبي تمام : أحسبك عاتياً . فقال أبو تمام : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعاً ، فكيف يعتب عليه ؟

ومرض ابن أبي دؤاد فعاده المعتصم في داره ، ونذر المعتصم إن شفي الله

ابن أبي دؤاد أن يتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال أحمد : اجعلها في أهل الحرمين .
فقال المعتصم : نويت أن أتصدق بها ههنا وأن أطلق لأهل الحرمين مثلها .

وقيل للمعتصم : كيف تعود و أنت لا تعود إخوانك وأجلاء أهلك ؟
فقال : وكيف لا أعود رجلاً ما وقعت عيني عليه قط إلا ساق إلى أجرا ، أو
أوجب لي شكرا ، أو أفادني فائدة تنفعني في ديني ودنياي ؛ وما سألتني قط حاجة
لنفسه ؟ وقال ابن حمدون : خرج علينا الواثق يوما ، وكان من الأدب والمعرفة
بالمنزلة العليا ، وهو يقول : لقد عرض عرضة من عرضة لقول الخزاعي ، يريد به دعبلا :
خليلي ماذا أرتجى من غنى امرئ . طوى الكشح عن اليوم وهو مكين ؟

وإن امرأ قد ضن عني بمنطق يسد به من خلتي لظنين
فانبرى أحمد يسأله كأنما نشط من عقال ، في رجل من أهل اليمامة ، فأطرب
وأسهب ، وذهب في القول كل مذهب ؛ فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لقد أكرت
في غير كبير ولا طيب . فقال : يا أمير المؤمنين إنه صديقي

وأهون ما يعطى الصديق صديقه من الهمين الموجود أن يتكلما
فقال له الواثق : وما قدر اليمامي أن يكون صديقك ، وإنما أحسبه من عرض
معارفك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنه شهرني بالاستشفاع إليك ، وجعلني مرأى
ومسمعا بين الرد والإسعاف ، فإن لم أقم لهذا أكن كما قال أمير المؤمنين آنفا :
خليلي ماذا أرتجى ... الخ

فقال الواثق : بالله يا محمد بن عبد الملك إلا عجلت لأبي عبد الله حاجته ليسلم
من هجنة المطل كما سلم من هجنة الرد .

وقال له الواثق يوما ضجرا بكثرة حوائجه : قد أخليت بيوت الأموال
بكثرة طلباتك للأنثيين بك والمتوسلين إليك : فقال : يا أمير المؤمنين ، نتائج
شكرها متصلة بك ، وذخايرها موصولة لك ، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال
الأسن بخلود المدح . فقبل الواثق : والله لا منعناك ما يريد في عشقك ويقوى
في همتك فينا ولنا . وأمر فأخرج له خمسة وثلاثين ألف درهم

وكان ابن أبي دؤاد من أحسن الناس تأتيا ، وكان يقول : ربما أردت أن

أسأل أمير المؤمنين الحاجة بحضرة ابن الزيات فأؤخر ذلك إلى وقت مغيبه ،
لئلا يتعلم حسن التلطف مني .

وكان بين ابن أبي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات عداوة مستحكمة ، حتى إن
شخصاً كان يصحب ابن أبي دؤاد ويختص بقضاء حوائجه منعه الوزير ابن
الزيات من التردد إليه ، فبلغ ذلك القاضي فجاء إلى الوزير وقال له : والله ما أجيئك
متكثراً بك من قلة ، ولا متعزراً بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة
أوجبت لقامك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك ، ثم نهض من عنده
وكان الواثق أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات إلا قام له ، فكان
ابن أبي دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي ، فقال ابن الزيات في ذلك
صلى الضحى لما استفاد عدواني وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعد من عداوة مسمومة تركتك تقعد تارة وتقوم
ثم أغرى ابن الزيات الشعراء بهجوا بن أبي دؤاد ، فقال فيه إبراهيم ابن
العباس الصولي :

عفت مساو تبدت منك واضحة على محاسن أبقاها أبوك لك
فقد تقدمت أبناء الكرام به كما تقدم آباء اللئام بك
وقال فيه حميد بن سعيد :

لقد أصبحت تنسب في إياد بأن يكنى أبوك أبا دؤاد
فلو كان اسمه عمرو بن معدى دعيت إلى زيد أو إياد
لئن أفسدت بالتخويف عيشي لما أصلحت عيشك في إياد
وإن تك قد أصبت طريف مال فيخلقك باليسير من التلاد

ولدعبل في هجم ابن أبي دؤاد

إن هذا الذي دؤاد أبوه وإياد قد كثر الأبناء
ساحقت أمه ولاط أبوه ليت شعري عنه فمن أين جاء
جاء من صخرتين ثم صلودين عقامين ينبتان الهباء
لا سفاح ولا نكاح ولا ما يوجب الأمهات والآباء

ولما طال ذلك العدا واستمر هذا الإغراء ، عمد ابن أبي دؤاد إلى ما عمد إليه ابن الزيات ، فأغرى الشعراء به ، فجهاه بعضهم بقصيدة عدد أياتها سبعون بيتاً ، وبلغ خبرها القاضي أحمد فقال :

أحسن من سبعين بيتاً هجا جمعك معانها في بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت
فبلغ ابن الزيات ذلك ؛ ويقال إن أحد أجداد القاضي كان يبيع القار فقال :
يا ذا الذي يطعم في هجونا عرضت لي نفسك للوت
الزيت لا يزرى بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت
فغيرتم الملك فلم تنقه حتى غسلنا القار بالزيت
ولما حبس ابن الجهم مدح ابن أبي دؤاد عدة مدائح . وسأله أن يقوم بأمره
ويشفع فيه ، فلم يفعل وقعد عنه ، فمن مدائحه

يا أحمد بن أبي دؤاد إنما تدعي لكل عظمة يا أحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه خوض الردى وخواف لا تنفد :
أتم بنو عم النبي محمد أولى بما شرع النبي محمد
فأعرض عنه ابن أبي دؤاد ، فلما فليح شمت به ابن الجهم وهجاه بقوله :
يا أحمد بن أبي دؤاد دعوة بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيد
أفسدت أمر الدين حين وليته ورميته بأبي الوليد وليدا
إلى أن قال :

وإذ تبسم ضاحكا شبهته شرقا تعجل شربة مردودا
ولما ولي ابن أبي دؤاد المظالم مدحه جماعة من الشعراء في عصره ؛ قال أبو تمام :
لقد أنست مساوى كل دهر محاسن أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى
فقال له ابن أبي دؤاد : هذا المعنى تفردت به أو أخذته ؟ فقال أبو تمام : هو لى ،
وقد ألمت فيه بقول أبي نواس :

وإن جرت الألفاظ منامدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نغنى

وقال فيه أبو تمام :

إلى أحمد المحمود أمت بنا السرى نواعب في عرض الفلا ورواسم
له من إياد قمة المجد حينما سمت أولها منه البنى والدعائم
ولو علم الشيخان أذً ويعرب لسُرَّت إذا تلك العظام الرمام
تلاقى بك الحيان في كل محفل جليل وعاشت في ذراك العمام
إذا أنت ضيعت القريض وأهله فلا عجب إن ضيعته الأعاجم
فقد هز عطفيه القريض توقعا لعدلك مذ صارت إليك المظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناء الندى من أين توثى المكارم
وهو القائل في ابن أبي دؤاد من قصيدة أخرى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
ومدحه مروان بن أبي الجنوب بقوله :

لقد حازت نزار كل مجد ومكرمة على رغم الأعداى
فقل للفاخرين على نزار ومنهم خندف وبنو إياد
رسول الله والخلفاء منا ومنا أحمد بن أبي دؤاد
وليس كمثلم في غير قومي بموجود إلى يوم التنادى
نبي مرسل وولاة عهد ومهدى إلى الخيرات هادى
ولما سمع أبو هفان المهزى هذا الشعر قال :

فقل للفاخرين على نزار وهم في الأرض سادات العباد
رسول الله والخلفاء منا ونبرا من دعى بنى إياد
وما منا إياد إن أقرت بدعوة أحمد بن أبي دؤاد
فقال ابن أبي دؤاد : ما بلغ مني أحد ما بلغ هذا الغلام المهزى ، لولا أنى أكره
أن أنبه عليه لعاقبته عقاباً لم يعاقب أحد بمثله ؛ جاء إلى منقبة كانت لى فنقضها
عروة عروة .

وكان ابن أبي دؤاد كثيرًا ما ينشد هذين البيتين ولم يذكر أنهما له أول غيره، وهما:
 ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
 فالיום حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب
 وحدث المرزباني عن أحمد بن أبي دؤاد أنه لما قال أبو نواس في الأمين:
 يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات
 فزع ابن أبي دؤاد وجعل يقول: لعنه الله! لعنه الله! وأحسن ابن أبي دؤاد
 في لعنه إياه على هذا الكلام.

ولما أنشد على بن الجهم قصيدته التي مدح بها المتوكل جاء فيها:
 وصاح إبليس بأصحابه حل بنا ما لم نزل نحذر
 مالى وللغر بنى هاشم في كل دهر منهم منذر
 عظم ذلك على ابن أبي دؤاد، فأطرق، فقال ابن الجهم: يا أبا عبد الله، ما سمعت
 مديحاً للخلفاء مثل هذا. قال: ولا غيرى، ولا توهمت أن أحداً يجترى على مثله
 ومن أجوبته: قال دخلت على الواثق فقال: بازال قوم اليوم في ثلبك
 ونقصك. فقلت: يا أمير المؤمنين، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم،
 والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم. فأنه ولى جزائه، وعقاب أمير المؤمنين
 من ورائه، وما ضاع امرؤ أنت حافظه، ولا ذل من كنت ناصره، فإذا قلت
 لهم يا أمير المؤمنين؟
 قال: يا أبا عبد الله:

وسعى إلى بعب عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها
 وكان أبو العيناء الضرير يقول: ما رأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن
 أبي دؤاد، ما خرجت من عنده يومًا قط فقال: يا غلام خذ يده، بل قال: يا غلام
 اخرج معه. فكنت أتقد هذه الكلمة عليه فلا يخل بها ولا أسمعها من غيره
 وأصيب ابن أبي دؤاد بالفالج في أول خلافة المتوكل، وذهب شقه الأيمن
 لست خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٣ هـ بعد موت عدوه محمد بن الزيات،
 وولى المتوكل ولده محمد بن أحمد ابن أبي دؤاد المظالم ثم عزله سنة ٢٣٦ هـ وأمر

بالتوكيل عن ضياعه، وأخذ منه مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجوهراً بأربعين ألف دينار، وتوفي أحمد في المحرم سنة ٢٤٠ هـ بعد وفاة ولده بشهر أو نحو ذلك؛ فلما مات وطلع سريرته قام إليه ثلاثة من الشعراء، فقال أحدهم:

اليوم مات نظام الملك واللسن ومات من كان يستعدى على الزمن
وأظلمت سبل الآداب إذ حجبت شمس المكارم في غيم من الكفن
وتقدم الثاني فقال:

ترك المنابر والسرير تواضعا وله منابر لو يشا وسرير
ولغيره يحجي الخراج وإنما يحجي إليه محامد وأجور
وتقدم الثالث وهو العطوى فقال:

وليس فتيق المسك ريح خنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف
وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أصلاب قوم تقصف
أحمد هاشم عطية

المراجع ...

ابن خلكان جزء أول

الآغانى جزء ٥، ٧، ٨، ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١ - الموشح للرزباني -

- زهر الآداب للحصرى - العقد الفريد - كتاب الاعتزال للقاسمى - الخطيب البغدادي -

هبة الأيام .

ثمامة بن أشرس

المؤلف : سائر علي السباعي

المدرس : مدرسة شبرا الثانوية

هو أبو معن ثمامة بن أشرس النخيري (١) أحد ناشري الاعتزال ، ورأس طائفة نسبت إليه تسمية التمامية ، ولد بالبصرة ؛ وليس بذى بال أن يعين المؤرخون في أية محلة من محلاتها ولد ، ولا في أي يوم وجد ، ما داموا قد أحاطونا علما بعصره ومن أدرك ، وأوقفونا على آثاره وما ترك . وقد حدثونا أنه بعد نشأته في البصرة ، مدرسة العلم والأدب ، ومهد اللغة والاعمال في القرنين الأول والثاني ؛ صعد منها إلى بغداد ، موطن الغنى والجاه ، ومباة العلماء والأدباء ، ومصدر الشهرة وذيوع الصيت ؛ فالتقى فيها ببشر بن المعتمر رئيس المعتزلين في بغداد ، فأخذ عنه كما كان أخذ عن أبي الهذيل العلاف في البصرة . ومن زملائه في الطلب ببغداد ، موسى المزدار ، وأحمد بن أبي دؤاد ، والجعفرين : جعفر ابن مبشر ، وجعفر بن حرب ؛ ويظهر أن من زملائه في البصرة الجاحظ . واستنباط بعضهم أنه من شيوخ الجاحظ لأنه يقول : حدثني ثمامة ، أخبرني ثمامة ؛ أو لأنه نقل عنه كثيرا في كتابيه البيان والتبيين والحيوان - ليس بقوى مدعم بالبراهين ، لأن العلماء المعاصرين ينقل بعضهم عن بعض من غير أن يكون

(١) نسبة إلى قبيلة بني نمير المشهورة ؛ ومن شعرائها الراعي ، وأبو حية النخيري ؛ وقد هجأها جرير بقصيدته الدامغة ، ولكن هجاءه لم يذهب بشرقها ولم يحط من مكاتها ؛ فقد كانت إحدى جمرات العرب ؛ والجرة : القبيلة تصبر لقراع القبائل لا تحالف أحدا ولا تنضم إلى أحد اعتزازاً بقوتها ؛ وإلى ذلك يشير أبو حية :

لنا جمرات ليس في الأرض مثلها كرام وقد جربن كل التجارب
نمير وعبس يتقن نفيانها وضبة قوم بأسهم غير كاذب
والنفيان : معناه رشاش السحاب ، شبه به من يتطرف من الجيش

أحدهم أستاذ الآخر، ولأن ثمامة مشهور بالاعتزال. وشيخ الجاحظ في ذلك النظام.

وحين اشتهر أمره في بغداد، وعرفته مجالس العلم والمناظرة مجادلاً ظاهر الحجة، قوى البديهة، مسكت الجواب، ذا حكايات ظريفة، ونوادر طريفة. رجت به مجالس الوزراء، وفتحت له أبواب الخلفاء، فاختلف إليهم وأصبح من التدايم والسمار، بل في منزلة المستفتى المستشار، أنس به الرشيد وقربه إليه، ثم غضب عليه لزندقته وظهور كذبه في أمر أحمد بن عيسى بن زيد^(١) فأمر بحبسه. كما يقول الطبري. في سنة ١٨٦ وأسله إلى سجان يدعى سلاما الأبرش وأشار إليه بالتضييق عليه وتعذيبه فسجنه. كما يعترف ثمامة. في بيت ضيق خرب مملوء بأجحار الهوام والجرذان، وليس به من المنافذ إلا ما يدس منه الطعام، وقد استعطف الرشيد بأبيات فعفا عنه وقربه وجعله نديمه، لما رأى من نضج عقله، وحسن أدبه، وحلاوة حديثه.

واتصل بالمأمون بعد الرشيد فخطى بمكانة لا تسامى، وجعله منه بمنزلة الاستاذ الخبير، والناصح المستشار، وقد عرض عليه الوزارة مرتين فأبأها، لا زهداً في المنصب وقناعة بما يملك، وإنما توقياً لأخطار الوزارة، وبعداً عن غيرها، وسلامة من تقلب الخلفاء وتغيرهم؛ وقد أعرب هو نفسه عن ذلك فقال: لما قتل الفضل ابن سهل بعث إلى المأمون. — وكنت لا أنصرف من عنده إلا إلى منزلي، ثم يأتيني رسوله في جوف الليل فأذهب إليه. — وكان قد أهلى لمكان الفضل في الوزارة، فلما رأيته قد ألح على في ذلك تعالت عليه وقلت: يا أمير المؤمنين، إني لا أقوم بذلك، وإني لأضن بموضعي من أمير المؤمنين وحالي أن تزول

(١) هو من نسل الحسين بن علي، كان خارجاً على الخلفاء العباسيين متعباً لهم، ومات في زمن المتوكل بعد إسحاق الموصلي في سنة ٢٣٥ هـ، وقد قال المتوكل لما بلغه نعيه، وكان مغتماً لوفاة إسحاق: تكافأت الحالتان، وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وثبتهم على) مقام الفجيعة بإسحاق فالحمد لله على ذلك.

عنده ، فإني لم أر أحداً تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ، ولا تدوم منزلته . فقال المأمون : أشر يا ثمامة على برجل صالح لما أريد فأشار عليه بأحمد ابن أبي خالد الأحول... فأنت ترى من نص عبارته أنه كان راغباً عن الوزارة ، لازهداً كما كان يفعل نظراؤه من المعتزلين الزاهدين أمثال عمرو بن عبيد وواصل والجعفرين ، الذين كانوا يرفضون ولاية الأعمال والقضاء ، بل يأبون مقابلة الخلفاء ، ويقبضون أيديهم عن أخذ العطاء - وإنما لأنه شديد الحذر ، بصير بالعواقب ، مقدر ما ينوب صاحب السلطان من خطر ؛ وكيف لا يقدر ذلك وقد رأى وسمع ملاقاة الوزراء في هذه الدولة ، بل جرب هو نفسه تقريره ثم إبعاده ، وإجلاله ثم إهائته وسجنه ، وقد ظل ثمامة أثيراً عند المأمون ، محبواً بالعطاء ، مقدماً في مجالس العلم والمناظرة ، حتى مات كما قال ابن شاكر في كتابه المخطوط عيون التواريخ سنة ٢١٣ هـ .

معتقده :

كان ثمامة من القدرية الذين يحددون القدر أو ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياء ، وقد أراد بعض متكلميهم أن ينفي هذه التسمية عنهم ، متعللاً بأنهم ينفون القدر ولا يثبتونه ، ومن يثبته أولى بهذه التسمية ؛ ولكنه في هذا التعليل مموه يلبس الباطل ثوب الحق ، لأنهم ينكرون القدر لله ويثبتونه لأنفسهم ، فهم قدريون يثبتون القدر لهم ، وتسميتهم بهذا مولدة ، إذ لم تعرف العرب القدرية بهذا المعنى ؛ ولثمامة طائفة نسبت إليه ذكرها الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، وذكر خلاصة مذهبه الذي انفرد به عن أصحابه فخصره في :

- (١) أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها
- (٢) أن الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والبهائم وأطفال المسلمين يصيرون تراباً يوم القيامة .
- (٣) أن الاستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وخلوها من الآفات وهي موجودة قبل الفعل
- (٤) أن المعرفة متولدة من النظر ، فهي كسائر الأفعال المتولدة لا فاعل لها .

(٥) أن المعارف كلها ضرورية . ومن لم يضطر إلى معرفة الله فهو معذور ،
مبخر للعباد كالحيوان .

(٦) أن العالم فعل الله بطباعه .

وبالتأمل والاطلاع على آراء المعتزلة نجد أن الأفعال المتولدة في مذهب كثير
منهم لا فاعل لها ، غير أن ثمامة توسع وأدخل فيها المعرفة وحكم بأنها متولدة من
النظر ، وليس لك فيها إلا توجيه الإرادة . أي أنها ضرورية ، وذلك رأى الجاحظ
وطائفته أيضاً ، ويترتب على القول بهذا أن آراء الإنسان وعقائده ليست مكتسبة ،
بل هي مفروضة عليه فرضاً ، وأنها نتيجة لازمة لتكوين عقله وما يعرض من
الآراء ، فمن عرض عليه دين فلم يستحسنه عقله يضطر إلى عدم الاستحسان وليس
في قدرته أن يستحسن ، ومن أسلم عن نظر فأسلامه غير مكتسب ، ومن كفر
فكفره غير مكتسب ، أي لا دخل له في كفره أو إيمانه ، وأن الأضرار التي
تحدث غير مباشرة للفاعل لا عقاب عليها ولا مسئولية فيها ؛ فإذا أشعل إنسان
عوداً فأحرق بيتاً وتولد عن الإحراق موت أشخاص - وعن موتهم أضرار
لا يسأل من أشعل عن هذه الأضرار ، لأنه قد يكون ميتاً والميت لا يمكن نسبة شيء
إليه ، ولو تأملوا في ربط المسببات بأسبابها ، وإسناد الحوادث إلى أصولها ، لصح
عندهم أن المتولدات راجعة إلى الفاعل الأول بتسلسلها عما قبلها .

وبقراءة كتاب الانتصار لابن الحيات يعلم أن مذهب ثمامة في الكفار
والمشركين الخ ، وعقيدته في أن العالم فعل الله بطباعه - مدسوس عليه ؛ فقد
قال ابن الحيات في ص ١٧٢ :

« وأما اليهود والنصارى والزندقة فكفار عنده مشركون غامدون للبعصية
والكفر ، والكفار عنده في النار خالدون ، وإنما قال ثمامة : إن من لم يعرف فهو
معذور عند الله وهو ليس يهودياً ولا نصرانياً ولا زنديقاً إذا كان جاهلاً ،
ولكنه مع قوله هذا يحكم على جميع من أظهر الكفر أنه كافر في حكم الإسلام ،
وقال في الرد على أن العالم فعل الله بطباعه في ص ٢٢ ، ٢٣ :
« ويله من حكى هذا القول عن ثمامة ! أو ليست كتب ثمامة معروفة وقوله

مشهوراً؟ وهل المطبوع عند ثمامة إلا الأجسام المعتملة المحدثه؟ فأما القديم الذي ليس بحسم فسبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وشئ آخر. وهو أن المطبوع على أفعاله عند أصحاب فعل الطباع هو الذي لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال كالنار التي لا يكون منها إلا التسخين، والثلج الذي لا يكون منه إلا التبريد؛ وأما من تكون منه الأشياء المختلفة فهو المختار لأفعاله لا المطبوع عليها.

وبدهى أن من في الكون وما فيه مختلف جد الاختلاف في أجناسه وأنواعه حجومه ومقاديره، ألوانه وأشكاله، حركاته وسكناته، فلا يمكن صدوره مطبوعاً؛ وباطل أن يكون موجد أو جده بطباعه كما تقول ابن الراوندى وأشرك غيره معه كذباً ليكسب آراءه الوجاهة والاعتبار

ومن رد ابن الخياط على ابن الراوندى يعلم ما في كتاب الشهرستاني من التساهل في النقل وتحامله عليه في وصفه بأنه كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس، كيف والخلفاء كانوا يجلونه ويحترمونه؟

مناظرته :

كان ثمامة قويا في الجدل، بارعا في دحض الحجج وإسكات المناظرين، يأخذ الطريق عليهم أحيانا فلا يدع لهم مسلكا من حسن ما استقصى وقسم، ويسألهم أحيانا حتى إذا استوت حججهم في أجوبتهم عمد إليها فأسقطها حجة حجة بعد أن أشهدهم على ضعفها، وقد ناظر وزراء وقضاة وعلماء ومغمورين لا نعرف عن صفاتهم شيئا، وتمكن بقاطع براهينه وقوة بيانه، وقرب منزلته من الخلفاء، من إخماد المجادلين؛ ولا تحسبن أنه فاز في ميدان الجدل دائما، فسترى أن مجنونا أسكته، وطفلا أخفه، وفوق كل ذي علم عليم، وليس بغريب أن يغلب العوام والأطفال والنساء فطاحل العلماء وفلاسفة كبارا إذا كان المعول على البدانة والاعتماد على الذكاء وقوة الملاحظة؛ وقدما قرأنا في كتب التاريخ أمثالا عدة توضح ذلك أجلى توضيح، وننقل هنا بعض مناظراته لترى كيف كان يفوق في حوار بالظفر، أو يرى بالتهت وقصر النظر.

(١) ناظر يحيى بن أكرم^(١) في خالق الأفعال فقال: ليست تخلو أفعال العباد من أمور: أن تكون كلها من الله ليس للعباد فيها صنع، أو أن يكون بعضها من العباد وبعضها من الله. فإن زعمت أن ليس للعباد فيها صنع نسبت إلى الله كل فعل قبيح وكفرت، وإن زعمت أنها من الله ومن العباد جعلت الخلق شركاء لله في فعل الفواحش والكفر وكفرت أيضاً، وإن زعمت أنها للعباد ليس لله فيها صنع صرت إلى ما أقوله.

(٢) حكى الجاحظ أن بشر بن المعتز كان في مجلسه وعنده أصحابه ومعه مجبر يسألهم ويقول: أتمحمدون الله على إيمانكم؟ وهم يقولون: نعم. فيقول لهم: فكأنه يجب أن يحمد على ما لم يفعل وقد ذم ذلك في كتابه. فيقولون له: إنما ذم من أحب أن يحمد على ما لم يفعل ممن لم يعن عليه ولم يدع إليه. وهو يشغب عليهم. إذ أقبل ثمامة بن أشرس، فقال بشر للمجبر: قد سألت القوم وأجابوك، وهذا أبو معن فأسأله عن المسئلة. فقال له: هل يجب عليك أن تحمد الله على الإيمان قال: بل هو يحمدني عليه لأنه أمرني به ففعلته، وأنا أحده على الأمر به والتقوية عليه والدعاء له. فانقطع المجبر، فقال بشر: شبت فسهلت.

(٣) قال ثمامة أنشدني أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكة
ألا إنما مالى الذى أنا متفق وليس لى المال الذى أنا تاركة
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه
فقلت له: من أين قضيت بهذا؟ فقال: من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إنما لك من مالك ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت. فقلت له: أتؤمن بأن هذا قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنه الحق؟ قال: نعم. قلت:

(١) هو محمد يحيى بن أكرم التميمي، وقال الشهاب الخفاجي: إنه ابن أكرم بالتام وجزم بذلك في شرح الدرة، ولكن الأول هو المشهور. كان قاضياً للرشد، ثم وزيراً للباون، وكان من بحور العلم لولا دعاة فيه، ومن تلاميذه الترمذى والسراج، وتوفي سنة ٢٤٢ هـ.

فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بكرة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزي ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال: يا أبا معن، والله إن ماقلت هو الحق، ولكنني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس. فقلت: وبهم تزيد حال من افقر عن حالك وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد؟ فترك جواب كلامي كله ثم قال لي: والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم. فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته، فأمسكت وعلمت أنه ليس بمن شرح الله صدره للإسلام.

(٤) قال رجل لثمامة: إن لي إليك حاجة. قال ثمامة: ولى إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: لا أذكرها حتى تضمن قضاءها. قال: قد فعلت. قال: ثمامة حاجتي ألا تسألني هذه الحاجة. قال: رجعت عما أعطيتك. قال ثمامة: لكنني لا أرد ما أخذت الخ

(٥) قال رجل لثمامة: أنت إن شئت قضى فلان حاجتي. فقال ثمامة: أنا قدرى، ولم تبلغ قدرتي هذا كله؛ إنما قلت: إن شئت فعلت ولم أقل إن شئت فعل فلان

(٦) دخل أبو العتاهية على المأمون فظعن على أهل البدع وجعل يخص القدرية باللعن؛ فقال له المأمون: أنت صاحب شعر ولغة، ولل كلام قوم. قال: يا أمير المؤمنين، لعمرى إن صناعتى لتلك، ولكنني أسأل ثمامة عن مسألة فقل له يجيبني. فقال له المأمون: لا ترد هذا فلست في الكلام من طرزه. فقال: يتفضل على أمير المؤمنين بذلك؟ فقال: يا ثمامة، إذا سألك فأجبه. فأخرج أبو العتاهية يده من كمه ثم حركها وقال: يا ثمامة، من حرك يدي؟ قال: من أمه لحناء. فقال: شتمني والله. فقال ثمامة: ناقض والله. فقال له المأمون: قد أجاب عن المسألة، فإن كان عندك زيادة فزده. فانصرف أبو العتاهية

وإنما قال ثمامة: ناقض والله. لأن أبا العتاهية كان مجبراً و ثمامة قدرى

(٧) قال ثمامة: خرجت من البصرة أريد المأمون، فإذا مجنون مشدود حسن الوجه كأنه صحيح العقل، فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ثمامة. قال: أمتكم؟

قلت : نعم . قال : لم جلست على هذه الآجرة ولم يأذن لك أهلها ؟ قلت : رأيتها مبذولة .
 جلست عليها . قال : فاعمل لأهلها فيها تدبيراً غير البذل ... ثم قال : هنامسألة أسألك
 عنها . قلت : هات . قال : أأست القائل : إن العبد لا ينفك عن نعمة يجب الشكر
 عليها أو بلية يجب الصبر لديها ؟ فقلت : نعم . قال : لو أصبت بما يلزمك عيياً
 ويصمك بالعار ، أهذا نعمة أم نعمة ؟ قال ثمame : فتحيرت ولم أدر ما أقول ؛
 فقال : وهنامسألة أخرى . فقلت : هات . قال لي : أخبرني متى يجد صاحب النوم
 لذة النوم ؟ إن قلت قبل أن ينام ، أحلت ؛ لأنه يقظان ، وإن قلت في حال النوم ،
 أبطلت ، لأنه لا يعقل شيئاً ، وإن قلت بعد قيامه ، فقد خرج عنه ، ولا يوجد
 الشيء بعد فقدانه ، قال ثمame : فهت ولم أستطع جواباً . فقال المجنون : مسألة
 أخرى . تزعم أن لكل أمة نذيراً ، فمن نذير الكلاب ؟ قلت : لا أدرى الجواب .
 فقال : أما الجواب عن التقسيم فيجب أن تكون الأقسام ثلاثة : نعمة يجب
 الشكر عليها ، وبلية يجب الصبر لديها ، وبلية يمكن التحرز عنها لكيلا
 ينضم العار إليها ، وأما الجواب عن النوم ، فبحال أن يدرك النائم لذة النوم ، وأما
 النذير ، فقد أخرج من كمه حبراً وقال : إذا عدا عليك كلب فهذا نذيره . ورماني
 بالحجر فأخطأني ، فلما رآه قد أخطأني قال : فأتك النذير أيها الكلب الحقير !
 فتركته وانصرفت : ولم أر مجنوناً بعده .

(٨) قال الجاحظ : قال ثمame : دخلت إلى صديق لي أعوده ، وتركته حمارى
 على الباب ، ولم يكن معي غلام ، ثم خرجت فإذا فوقه صبي ، فقلت : لم ركبت
 حمارى بغير إذني ؟ قال : خفت أن يذهب فحفظته لك . قلت : لو ذهب كان أحب
 إلى من بقاته . قال : فإن كان هذا رأيك في الحمار فاعمل على أنه قد ذهب وهبه
 لي واربح شكرى . فلم أدر ما أقول .

والمناظرتان الأخيرتان غلب فيهما ثمame وانقطع عن الإجابة

محبونه :

من يتتبع مناقشات ثمame ونوادره لا يسعه إلا أن يحكم عليه بأنه كان قليل
 الاكتراث ، لا يحافظ على سمع العلماء ووقارهم ، فلم يمنعه الحياء أن ينطق بالعوراء

أمام المأمون في مناقشته أبا العتاهية ، ولم يستتر حين كان يرتكب ما يوجب استهجاناً ونقده ، ولم يبال بالعامية في شيء ؛ وله في تحقيرهم وعدم الاعتداد بهم الكثير ؛ ولقد كان يحسبهم قطعاً يساق بالعصا ويتبع كل ناعق ، وبلغ من استخفافه بهم أنه حرص المأمون أن يلعن معاوية ، ويكتب بذلك كتاب يقرأ على العامة في يوم الدار ؛ وهم المأمون بذلك لولأن أشار عليه يحيى بن أكثم فقال : « الرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ، وألا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصح في السياسة وأحرى في التدبير ، فالأمم المأمون إلى رأي يحيى ، فقال ثمامة : وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا يساق إليك يعصاه عشرة آلاف منها ، وقد سواها الله بالألغام فقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . وحكى للأمون مشهداً رآه فأضحكه ، وإنالذاكرون بعض نوادره لنؤيد ما إليه قصدنا بهذا العنوان (١) خرج من منزله بعد المغرب وهو سكران ، فإذا هو بالأمون قد ساق إليه وحاذاه ، وقد ركب في نفر ؛ فلما رآه ثمامة عدل عن طريقه ، وبصر به المأمون فساق إليه وحاذاه أيضاً ، فوقف ثمامة ، فقال له المأمون : أنت ثمامة ؟ قال : إى والله . قال : سكران أنت ؟ قال : لا والله . قال : أو تعرفنى ؟ قال : إى والله . قال : فمن أنا ؟ قال : لا أدري والله ! فضحك المأمون وانثنى عن دابته حتى كاد يقع (٢) قال ثمامة : مررت بابراهيم الموصلى ويزيد حوراء وهما مصطبجان وقد أخذا بينهما صوتاً يغنيانه ، هذا بيتاً وهذا بيتاً ، وهو :

أيا جبلى نعمان بالله خليا سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على نفس مهموم تجلت همومها
قال ثمامة : فوالله ما خلت أن شيئاً بقي من لذات الدنيا بعد ما كانا فيه
أليس في قوله استصواب للسكر وحث عليه واستنكار لبقاء لذات الدنيا بعد السكر والغناء ؟ وفي ذلك من الاستهتار والمجانة ما فيه .

(٣) ومن نوادره وأجوبته المسكتة معاً أن قالوا له حينما احترقت داره :
« ما أسرع خلف الحريق ! ، فقال : « فأننا أستحرق الله ،

(٤) وما رواه الحسن بن رجاء أن سلاماً الأبرش سجان هرون الرشيد جلس يقرأ عشية في المصحف : « ويل يومئذ للكذابين » فقال له ثمامة من السجن : إنما هي للكذابين . وجعل يشرح له ويقول : المكذبون هم الرسل ، والمكذبون هم الكفار . فقال سلام : « قد قيل لى إنك زنديق ولم أقبل ، ولما رضى الرشيد عن ثمامة وأطلقه سأل جلساءه عن أسوأ الناس حالاً فقال : كل واحد شيئاً أما ثمامة فقال : « أسوأ الناس حالاً عاقل يجرى عليه حكم جاهل » قال ثمامة : فتبينت الغضب في وجه الرشيد ، فقلت : يا أمير المؤمنين « ما أحسننى وقت بحيث أردت » قال : لا والله ، فاشرح . فحدثته بحديث سلام ، فجعل يضحك حتى استلقى وقال : صدقت ، والله لقد كنت أسوأ الناس حالاً

أربع

ليس تحت أيدينا - بحسب ما وسعنا البحث - من الأدلة الناطقة بعلو كعب ثمامة في الأدب شيء يذكر ، فلم نقرأ له مقطوعات شعرية رائعة تشهد له بسمو الخيال أو البراعة في الابتكار . ولم نقف له على رسائل ديجها قلبه وأساتها يراعت ، ولم نحفظ عنه خطبا رددتها المحافل وتناقلها الرواة ؛ ولكننا نقرأ شهادات من معاصريه تقر بأنه كاتب بليغ وأديب ضليع ومناظر بارع ، وتصف ألفاظه ومعانيه بصفات البلاغة مجتمعة والفصاحة كاملة ، ولعل آثاره التي بنوا حكمهم عليها اندثرت فيما اندثر من نتاج القرائح وثمرات الأفكار ؛ إما حقداً عليه لمنزلته من الخلفاء وتمكنه من تجريح المناظرين أمامهم ، وإما لأنها كانت تشتمل على مذاهب لا ترضاه العامة وقد نالت منه ما نالت فبادلته بالتحقير إخفاء لآثره وتضييعاً لتاجه ، وإما لأنها كانت تتضمن قوارص ومخازى تحز في الخصوم وتعيب جلساءه ، ولم يصل إلينا إلا تنف من أخباره ونوادره ، وطرف من مناقشاته ، وإنما مع قلتها لتبين لنا مقدار تأثير الأدب بعلم الكلام وتجلي قوته البلاغية ، والجاحظ بمن يقرون له بالأدب ويعترفون بيلاغته ؛ وحسبك بإقرار الجاحظ واعترافه شهادة قال الجاحظ : يقول ثمامة : « كان جعفر بن يحيى البرمكي أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان في الأرض

ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ، وقال ثمامة أيضاً : ، ما رأيت أحداً كان لا يتجسس ولا يتجلبج ولا يتنحج ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يتلس التلخص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه - أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى ، يقول الجاحظ بعد هذا القول : ، وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة فوصف بها جعفر بن يحيى كان ثمامة ابن أشرس قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان في زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الإيفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه ؛ وكان لفظه في وزن وإشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ؛ قال بعض الكتاب :

معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه ، الواضحة في مخارج كلامه ، كما وصف الخريبي شعر نفسه في مديح أبي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف ،

انتهت شهادة الجاحظ ، وهي تعترف في صراحة ووضوح بأن منزلة ثمامة من البلاغة منزلة من تملكوا زمامها وتصرفوا فيها بما يعجب ويغرب .

وما يدل على بلاغته وفصاحته النبذ التي نذكرها بعد :

(١) سأل المأمون يحيى بن أكرم و ثمامة بن أشرس وعلى بن عبيدة الريحاني عن العشق ما هو ؟ فقال على بن عبيدة : العشق ارتياح في الحلقة ، وفكرة تجول في الروح ، وسرور منشؤه الخواطر ، له مستقر غامض ، ومحل لطيف المسالك ، يتصل بأجزاء القوى وينساب في الحركات .

وقال يحيى : العشق سوانح تسنح للبرء تؤثرها النفس ويهيم بها القلب . قال ثمامة : يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب في مسألة في الطلاق أو عن محرم يصطاد ظيماً ، أما هذه فمألتنا . فقال المأمون : ما العشق يا ثمامة ؟ قال :

إذا تقادحت جواهر النفوس بوصف الشاكلة ، أحدثت لمع برق ساطع تستضيء به نواظر العقول ، وتشرق له طبائع الحياة ، فيتولد من ذلك البرق نور

خاص بالنفس متصل ، بجوهريتها ، يسمى عشقا . وقيل : إنه قال : « العشق جليس
بمتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب مالك ، وملك قاهر ، مسالكة لطيفة ، ومذاهبه
غامضة ، وأحكامه جائزة ؛ ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون
فنواظرها ، والعقول وآرامها ، وأعطى عنان طاعتها وقياد ملكها وقوى تصرفها ؛
توارى عن الأبصار مدخله ، وغمض في القلوب مسلكه ، فقال له المأمون : أحسنت
يا ثمامة ؛ من يصف العشق يصفه مثلك ، فإنك طيبه الحاذق . وأعطاه ألف
دينار . وأنت ترى في تعريفه الأول مذهبه من التولد والاتصال والامتزاج ،
وتراه في تعريفه الثاني يستقصى الصفات والآثار على طريقة المتكلمين والفلاسفة
حين يصفون أو يشرحون .

(٢) روى الجاحظ عن ثمامة يصف تلاعب الجرذان وقتالها حين حبسه
الرشد في بيت ضيق مليء بأججارها :

« لم أرقط أعجب من قتال : كنت في الحبس وحدي ، وكان في البيت الذي
أنا فيه جحر فأر يقابله جحر آخر : فكان الجرذ يخرج من جحره فيرقص ويتوعد
ويصوب بذنبه ويرفع صدره ويهز رأسه ، فلا يزال كذلك حتى إذا برز الآخر ،
دخل في جحره وصنع الآخر مثل ذلك ؛ فلا يزالان كذلك في الوعيد وفي
الفرار وفي التحايز وفي ترك التلاقي ، إلا أني في كل مرة أظن الذي يظهر لي
من جدهما وشدة توعدهما أنهما سيلتقيان لشيء أهونه العض والخش ، ولا والله
إن التقيا قط ؛ فعجبت من وعيد دائم لا إيقاع معه ، ومن فرار دائم لا إثبات
معه ، ومن فرار لا يمنع العودة ، ومن إقدام لا يوجب الالتقاء ، ليس هو إلا
الصخب والتشبث . فلم يعد كل واحد منهما حتى يدخل جحره ، ومازالا كذلك
حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلي سبيلي .

(٣) كتب ثمامة إلى الرشد من الحبس :

عبد مقر ومولى شت نعمته بما تحدث عنه البدو والحضر
أوقرتة نعماً أتبعتهما نقما طوارقا فيها في الناس يشتهر
ولم تزل طاعتي بالغيب حاضرة ما شأنها ساعة غش ولا غير

فإن عفوت فشيء كنت أعهد أو انتصرت فمن مولاك تنتصر
ولم نزله فيما وصلت إليه أيدينا من المصادر شعراً غير هذا ، ولم يحدثنا من
كتب عنه أنه شاعر ، وما قدمناه عن ثمانية لا يجعل صلته بالأدب وثيقة ذات بال ،
فترجمته في علم الكلام أليق وأولى .

على السباعي

المصادر :

البيان والتبيين للجاحظ ، الحيوان له أيضا ، الأغاني ، أمالي المرتضى ، عيون
التواريخ لابن شاكر المخطوط بدار الكتب ، تاريخ الخطيب البغدادي ، معجم
الأدباء ، الفهرس لابن التديم وتكملة ، تاريخ الطبري ، الاتصار لابن الخطاط .



حافظ الراوية

لمؤسّس محمد هاشم عظيم

في هذه الفترة من نهضتنا الحاضرة لم يقتصر شاعرنا الكبير على ما أذاعه من آثار عبقرية في أشعاره الخالدة، ولكنه استطاع أن يستأثر بنصيب غير قليل من تلك المعونة الطيبة التي كانت موجهة من كل ناحية لأحياء اللغة ونشر آدابها العالية. ومحاولة الاسترداد لبعض ماسلبته من مجدها القديم في عصورها الزاهرة، (ففي أوائل هذا الجيل تطلعت الأنظار إلى الشعر العربي، وأصغى أبناء العربية إلى ما تدوى به منابر الأمصار الكبرى في بلاد المشرق، وما يسيره فحول شعرائها من شوارد القريض، حتى أوشكوا أن يعيدوا إلى الأذهان ما كان للشعر والشعراء في دور الأمراء، وقصور الملوك، أيام ازدهار الخلافة، واستبحار العمران العربي في الدولة، وفي ذلك الوقت كان الناس لا يزالون يتخذون مجالسهم في صحون الدور، ومناظر المنازل، وتقوم الليالي الساهرة في كثير من قصور السروات على بغاة الحديث والسمر، الذين يتطرفون بما كان يدور في هذه المجماع الراقية من المجاذبة والبوارد المرتجلة، والطيب المأثور عن أمثال حافظ، والبايلي، والمويلحي، أولئك الذين كان اجتماع ثلاثهم في وقت واحد يعد حقاً منقبة نادرة في تاريخ مصر الحديث، حتى سعى المتأدبون والظرفاء إلى حلقاتهم، وطلبهم في مظانهم، وتنفقوا عندهم بكل موهبة، وتطيبوا لهم بكل فن، وتنبه الناس في تقليدهم الأدبي إلى مسلك البارودي، وحافظ؛ في الاحتفال باللفظ، والتوخى لجزالة المنطق، والإيثار لجلالة العبارة؛ وكان حافظ إمام هذه الطبقة في الاستظهار لجيد الشعر، والمعرفة بأوابد المتكلمين، ومقامات البغاء؛ وكان طويل الملازمة لآثار عشرة من أعيان شعراء العربية أكثر من غيرهم من شعراء العصور الأخرى، لا نعلم أنه اجتمع أمثالهم في نحو قرنين متعاقبين من الزمان لأهل لغة من لغات العالم، وهم:

بشار، وأبو العتاهية، ومسلم، وأبونواس، وأبو تمام، والبحري، وأبو الطيب،

وأبو العلاء، وابن الرومي، والشريف الرضي؛ - فلا المحافل بفراغهم، والتوايه
 ببلاغاتهم، وحمل تلاميذه والمنتحايين لمذهبه على الشغف بدراسهم، والتفقد
 لمعانيهم، وكان أكثر المتأدبين في ذلك الوقت من نشأ هذا العصر إنما يلدون
 بالتداول المشهور عن هؤلاء، من مثل، أو حكمة، في بيت أو بيتين أو أكثر من
 ذلك مما لا يبلغ أن يكون قصيدة، ويدق عن فظهم في الجملة ما لهؤلاء العرانيين من
 المنحول المذهب، والموصوف المبتهل، من حر القول، وصريح الكلام، وقد
 يكون بين أيديهم في الكتب، وفيما يطالعونه من الدواوين، وهم يمرون به
 لا يعرفونه، ولا يقدرّون على استخراجه، إذ كان ذلك إنما يقع من عمل البصرة
 القادرة، والخاطر الثاقب، ومن طول التلبث في أعقاب الكلام، ولطف الترقب
 لخارج المتكلمين، مع الاستعانة بالملكات الموهوبة، والروية القوية، وطول
 التجلد على التكرار والمراجعة، مما كان لحاظ منه حظ قلبا شره فيه أحد من
 معاصريه، فأخذ (رحمه الله) بهذه الدراسة العالية، والمطارحة المشهودة، يثير
 العزائم إلى احتمال أمانة اللغة، ويستكثر حوله من عشاق الأدب القديم، ويصنع
 في مصر صنيع أئمة الرواة في بغداد، أيام كانت مدرسة الدنيا، وعاصمة العالم
 في عهود مجدها الذهبية، بالإجماع من ذاكرته، والقراءة من غيب صدره، لكل
 جديد فائق، ولكل بيت عين، ولكل محبرة مطولة، أو مقطوعة من محاسن أولئك
 الشعراء، وكانت طريقته في ذلك كما يعرفها من كانوا يداخلونه أو يعيشون بعض
 الوقت معه في داره، أنه في الغالب يزيل تجاليد الكتب ويتخذ منها كراسات
 صغيرة يخف عليه تناولها فيما يتفق له من الأحوال: قاعداً، أو قائماً؛ أو متكئاً
 على وسادة، أو مستلقياً في فراش، ثم يفرغ منها وقد وعّاها، وألم بما به السلف
 عليه من عيبها وجمالها، وأضاف إلى ذلك من عنده ما يقع في نفسه؛ ويتكرر
 ذلك منه.

وكان (رحمه الله) من أذرى الناس بمناقب الكلام، وأفرسهم بالبيت من
 الشعر، فيغذو أو يروح على الناس وما يكاد يلقاه صديق، أو يضمه مع جماعة
 مجلس، حتى يتندر الكلام، لا يحتال على فرصة، ولا يجتهد في طلب مناسبة. وقد

يوافقهم في الطريق ، أو يعارض المارة منهم ، أو يتأديهم إذا رآهم من كذب ، وكان يحمدهم رأيه في النقد ، ومعرفتهم بالأدب ، ليسمعهم ما قرأه اليوم مثلاً لبشار الذي يعرفون من بانيته قوله المشهور :

وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَى سَجَايَاهُ كُلَّهَا كَفَى الْمَرْءَ نَجْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِهِ
ثم يعرض منها أروع ما تضمنته من تصوير الجماعة من الوحش في البادية
تشكو لجأها أو قائدها بما ظهر في عينيها من الانكسار والفترة - مانالها من شدة
العطش والحر إذ يقول :

ولما تولى الحر واعتصر الثرى لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى إلى الجاب إلا أنها لا تخاطبه
ثم لا يزال يعجبهم من حسنه . ومن القدرة على تمثيله ، وهو في خلال ذلك
يلقى على ما ينشره من جهارته ، وحلاوة أداته ، وإشباعه لإملائته ، ما يبهر العقول ،
ويستخف إلى طلب المزيد . وقد يدبر الحديث إلى أبي نواس ، وكان مخصوصاً به
ومداحه ، فيكثر منه حتى يكون آخر ما يمثل به من شعره أبيات في خمرية له لامية
ينتصر فيها لمثل الآراء المتطرفة من مذاهب الثوريين في زماننا هذا ، وهي قوله :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفة يقوم سواء أو مخيف سبيل
بكل قى لا يُسْتَطَارُ جناه إذا نوه الزحفان باسم قتيل
لنخمس مال الله من كل فاجر أخي بطنة للطيبات أكل
كفى حزناً أن النجواد مُقْتَرَّ عليه ، ولا معروف عند بخيل
ألم تر أن المال عون على التقي وليس بجواد مُعْذِم كَمُثِيل

وكثيراً ما كان يقتضب هذا الترسل بالإلقاء للدارة ، أو الانتهاز لغمزة
يتضحك بها أهل المجلس ، ويتماحون عليها ساعة . وقد يتلاحق ذلك من غير
واحد منهم ، ثم يعود بهم إلى ما كانوا فيه ، أو يقومون إلى ما أعد لهم من طعام
أو نزل ، وتراه في مقام آخر يمضي إلى أبي تمام ، وكان يتولاه ويؤثره ويقدمه ،
فيعدل عن مشهوراته كقصيدته .

« السيف أصدق أنباء من الكتب ،

وكالآخرى :

• كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ،

إلى طواله وأعيان شعره فيقلب بين قوافيه ، من قوله :

• عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَا عِبٍ ،

وقوله :

• غَدَتِ تَسْتَجِيرُ الدَّمَغَ خَوْفَ نَوَى غَدٍ ،

حتى يصل إلى مثل قصيدته :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَّارٍ فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ
وهى من أعاجيب أبى تمام ، فيطيل وقفته لها ، حتى إذا وصل إلى ذم
الافشين في قوله منها :

كَمْ نِعْمَةٌ لِلَّهِ كَانَتْ عِنْدَهُ فَكَأَنَّمَا فِي غَرْبَةٍ وَإِسَارٍ
كُسِيتَ سَبَائِبَ لَوْمِهِ فَتَضَامَلَتْ كِتْمَانُ الْحَسَاءِ فِي الْأَطْمَارِ

قرظه واستحسن اغتراب النعمة عنده :

وكنا حوله ليلة وهو يتغنى بهذه القصيدة على طريقة جماعة المتكسبين
بالأشعار العامية ، فبلغ إلى قوله منها :

سُودَ اللَّبَاسِ كَأَنَّمَا تَسَجَّتْ لَهُمْ أَيْدَى السَّمُومِ مَدَارِعَا مِنْ قَارِ

بَكَرُوا وَأَسْرُوا فِي مُتُونِ ضَوَائِمٍ قِيدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرَبَاطِ النَّجَارِ

لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدأ على سفر من الأسفار

ثم التفت إلى الحاضرين ثم قال : « ما ذا يصف الشاعر بهذه الآيات ؟ »

فقاتل يصف خيلا ، وقاتل يصف جيوشا ؛ وآخر يقول فرسانا ، فهاق بهم

ثم قال : لا ، بل يصف مصلوبين ، رأيتم كيف اقتيدت جذوعهم من مربوط

النجار . وسأله سائل عن حديث أبى تمام مع ابن الصباح الفيلسوف الكندى

في اعتراضه على ما جاء في سنيته للمعتصم :

هـ ما في وقوفك ساعة من بآس هـ

حين شبهه بأشراف العرب ، واستخف بذلك الكندي في قوله :
إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
وما ارتجله بديها من قوله :

لا تنكسر واضربني له من دونه مثلاً شروداً في الندى والبأس
فأله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وبعد أن أجابهم عدل بهم عن هذا المشهور من القصيدة إلى قوله منها :

إن المنازل ساورتها فرقة أخلت من الآرام كل كناس
من كل ضاحكة التراب أرهفت إرهاف خوط البانة الميأس
بذر أطاعت فيك بادرة النوى خطأ وشمس أولعت بشيأس
بكر إذا ابتسمت أراك وميضها نور الأفاح برملة ميعاس
وإذا مشت تركت بقلبك ضعف ما بجليها من كثرة الوسواس
ولا يدع أبا تمام قبل أن ينشد قوله لأبي سعيد بن يوسف من أمراء الثغور

من قصيدة أطلأ لهم سلبت دوماها الهيفا

لك هضبة الحليم التي لو وازنت أجأ إذا ثقلت وكان خفيفاً
وحلاوة الشيم التي لو مازجت خالق الزمان القدم صار ظريفاً
أما ما أذاعه حافظ للبحترى ، وأبي الطيب ، والشريف ، والمعري ، فيضيق
علينا المقام لو خاولناه ، وفيما تناولناه إشارة ، وبهذا وأشباهه ستر حافظ هذه
الأشعار في طبقات المتعلمين ، حتى فشا فيهم يومئذ التطرف بالأدب ، والتحقق
بالرواية ، وكثر الالتحال لكلام المتقدمين ، والتجمل بأدب الأوائل ؛ حتى
أوشك أن يكون بين الناس من يستحقون بعد قليل أن نسميهم طبقة الرواة
والمحدثين من حفاظ الأدب ونقله الأخبار ، إلى أن كانت أواخر أيامه — رحمه
الله — وفرغت نفسه من الرغبة في الناس ، وحبيسته العلل عن محاضرة المجالس

وسكت أيضاً عن قول الشعر ، واقترن ذلك بما ملئت به دروب القاهرة وأحيائها من المشارب ، والمسارح ، وازدحمت هذه الكثرة من المجلات والصحف ، وانتهب الناس بعضهم من بعض ، وتقاضتهم مظاهر الحياة الجديدة كل ما لديهم من فراغ وعمل ؛ فبطل السمر في الدور ، وعطلت مناظر القصور ، وانصرف الناس عن هذه المذاكرة ، وكسدت سوق المطارحة ، وعادت الوحشة من الأدب القديم تدب إلى الاجتماع ، حتى ماترى إلا قليلاً من له ذاكرة واعية من الأدب ، أو ذخيرة صادقة من العلم ، وصار حقاً علينا من هذا المنبر أن نبكى في حافظ وفاءه للعربية ، وأن نكرمه بإحياء مذهبه في الرواية ، لنرضى الله ونرضى حافظاً في ثراه .

محمد هاشم عطية



المدائح والتهاني والثناء

في شعر المغفور له حافظ بك ابراهيم

لهوستان محمد البسي

المدرس بدار العلوم

عهدت إلى لجنة الاحتفال بالكلام في هذه الفنون الثلاثة من شعر حافظ ، وإذ كان مجال القول ذا سعة والوقت لا يتسع للبحث الضافي - آثرت أن أجمل الكلام إجمالاً يقوم بالغرض ولا يطغى على الزمن ، ويكشف جانباً من عبقرية شاعر النيل .

المدح: - نشأ حافظ نشأة عسكرية ، نزاعاً إلى الحرية ، في نفسه إباء وهمة ، فكان أفق مديحه محدوداً ، لا ينثر المدائح هنا وهناك ، فقصر مدائحه على أصدقائه ، ومن رآهم موضع نجواه وحل آماله . ومن آزره في الشدة ، ومن شاطره فكرته الوطنية وكان لهم في نهضة مصر ومكافحة الظلم أثر ظاهر ، ومدح رب الخلافة إذ كانت يوماً ما معقد رجاء البلاد ، وكأنما أراد بذلك أن يتصل بعرش الآستانة حين أخذ عليه (شوقي) طريق الاتصال بعرش مصر ، وكان طبعياً أن يمدح سمو الخديو ، فدحه في مناسبات كثيرة ، ونوه في مدائحه له بشاعريته المغبونة . وأكثر فيها من شكوى جده العاثر ، من ذلك قوله من قصيدة رفعت إلى سمو الخديو في يوم عيد :

طف بالآريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن داني
ياعيد ، ليت الذي أولاك نعمته بقرب صاحب مصر ، كان أولاني
على أن مدائحه تتفاوت في قوتها وتأثيرها ؛ فما كان منها لصديق أو معقد رجاء كان فياضاً بالعاطفة ، جياشاً بتخلجات النفس ومظاهر عرفان الجليل ، وما عدا هذا فأكثره من المدائح الفنية التقليدية البارعة ، همه فيه أن يسجل المفاخر ويصورها في صور شعرية خلابة ، يجليها في أحسن صورة ، ويسبغ عليها من

فه الخصب ثوباً من الرواء والبهجة ، فنزل من الشعر في مكان رفيع .
ولعل من أمتع مدائحه وأحفلها بالعاطفة الصادقة قوله في الأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده ؛ وصلته به ما تعلم :

أنت نعم الإمام في موطن الرأ (م) ي ، ونعم الإمام في المحراب
خشع البحر إذ ركب جوار (م) به خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا ماؤه كخاطرك المص (م) قول أو كالفرند أو كالسراب
يتجلى كأنه صف الآ (م) رار منشورة ليوم الحساب
علمت من تقل فانبعث لا (م) قصد مثل انبعثاته للثواب
فهى تسرى كأنها دعوة المضي (م) طر في مسيح الدعاء المحجوب
وقوله في صديقه عميد الأسرة الأباطية المرحوم (سليمان باشا أباظه) من
قصيدة مزج فيها المديح بالتهنئة :

سليمان ، ذكرت الزمان وأهله بعز سليمان وإقبال دنياه
إذا سرت يوماً حذر النمل بعضه مخافة جيش من مواليك يغشاه
وإن كنت في روض تغنت طيوره وصاحت على الأفان: يحرسك الله
التهاني :- نظم حافظ في التهنئة فأكثر ، فهو يهني أصدقاءه ، ويهني دولة
الخلافة ورب الخلافة ، ويهني سمو الخديو ، ويهني الأمة في مناسبات شتى :
كإقبال العام الهجري . وشأنه في التهنئة يقرب من شأنه في المدائح ، فمن النوع
الذي امتزج فيه جمال الفن بتدفق العاطفة ، قوله في القصيدة السابقة يهني المرحوم
سليمان باشا أباظه بإبلاله من مرضه :

لبست الشفا ثوباً جديداً مباركاً فالبستنا ثوباً من العز نرضاه
وكان عليك الدهر يخفق قلبه فلما شفاك الله أهدأت أحشاه
وهنا جديده الزمان وأصبحت تسوق لنا الأيام ما تمناه
سليمان ، دُم مادامت الشهب في الدجى وما دام يسرى ذلك البدر مسراه
ويلوح للناقد البصير أن حافظاً ما كان يحفل كثيراً بالتهاني الفردية ، أو
بعبارة أخرى : ما كان يجد في نفسه ميلاً فطرياً إليها ، ولعل هذا سر ما نراه من

التفاوت بين تهناته ، فتراه حين يهني . صديقه الحميم (سليمان باشا أباطه بالابلال
من المرض وبزواج ابنه علي) يطيل في الغرض الأول بعض الإطالة ، ويسكب
عليه روحاً من عواطفه ، ثم يجتزئ في الغرض الثاني بيت واحد (١) لا يخلو
من الضعف ، كما نرى بحافظ يرى إبلال الصديق العظيم لا تقف جدواه عند المنأ
وحده ، أما الزواج فيعتبره من الشؤون الفردية الخاصة فيقف فيه عند النظرة
العجلى ، وقد رأينا حافظاً إذا تناول التهاني العامة خب فيها ووضع ، وافق فيها
وأبدع ، وأطال ما شاء له البيان المطاوع ، من ذلك تهناته للأمة الإسلامية بالعيد
الهجرى . وللأمة العثمانية بعيد الحرية والدستور ، فقد جلاها في صورة بديعة ،
وبيان رائع ، وقواف قوية سليمة ، وشاعرية عربية صميعة ، ذلك بأنه كان يتخذ
منها سيلاً واضحاً إلى بث أفكاره السياسية ، وميوله الوطنية ، وأفكاره الاجتماعية ،
وحافظ شاعر سياسة ووطنية واجتماع ، قبل كل اعتبار آخر .

وقد يمنح حافظ إلى الدعاية اللاذعة في تهناته الفردية ، كما فعل مع صديقه
المرحوم حفي بك ناصف حينما رقى إلى منصب المفتش الأول للغة العربية ، فقد
هنأ حافظ في حفل أقيم لتكريمه بقصيدة فكاهية طويلة مطلعها :
يا يوم تكريم حفي أرهفت للشعر ذهني
وفيها :

وذقت من (جاء زيد) ومن حواشى الشعنى
ومن حواشى الحواشى على متون ابن جنى
ما لم تذقك الليالى قلبن ظهر المجن
مفتش وفقيه وشاعر وابن فن

وتكاد التهاني في شعر حافظ تتصل بالمدائح ، فحسبنا منها ما تقدم .
المراثى :

أما الرثاء فهو الفن الذى أبدع فيه حافظ أيما إبداع ، فصال فيه وجال ، وبكى

(١) هو قوله :

وكن لعل بهجة العرس ، إنه بعزك فى الأفراح تمت مزاياء

فيه واستبكي، ووفى به لإخوانه فأكمل الوفاء، ورثى فيه عظامه مصر من الساسة والمصلحين فخلد ذكراهم، وأجرى على الدهر سيرهم، واتخذ من مراتبهم منبراً يهتف من فوقه بشباب الأمة: أن سيروا إلى المثل الأعلى، فساروا في ضوء أولئك العظماء الراحلين، وسلكوا طريقهم فوصلوا بمصر إلى ما وصلت إليه.

إن مصر لمدينة إلى حد كبير لذلك الشاعر الفحل الذي وفي عظماءها حقوقهم، فرقى وأحسن الرثاء، وكرم فأحسن التكريم، ومن يستطيع أن ينكر مرأى حافظ للأستاذ الامام والبارودي ومصطفى وفريد وسعد زغلول ومحمود سليمان وسواهم من كل هاتف بمجد مصر، وداع إلى الإصلاح فيها؟

وإن الأدب العربي لمدين لشاعر النيل بتلك المراتى العذبة الخالدة، التي نفثها سحراً حلالات، فلهج بها أبناء العربية في مصر والشرق، فكانت مادة يان لا ينضب، واتخذ منها الشعراء الناشئون مثلاً يحتذى. أى بيان ذلك الذى أسعف حافظاً في رثاء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده إذ يقول:

أيا منزلاً فى عين شمس أظلتى وأرغم حسادى وغم عدائى
دعائمه التقوى، وآساسه الحجا، وفيه الأيادى موضع اللبائى
عليك سلام الله، مالك موحشاً عبوس المغانى مقفر العرصات؟
وأى بيان، وأى وفاء ألهامه، برثاء صديقه الكريم عثمان بك أباطه إذ يقول:
ياراحلاً أكبرتك الحادثات، وما أكبرتها عند تليين وتشديد
أبكيت حتى العلا والمكرمات وما جفت عليك مآقى الخرد الخود
بنى أباطه، لا زالت دياركم أفق الديار وغاباً للصناديد
وأى وفاء بعد وفاء حافظ، وأية دياجة خير من دياجته، حين يرثى صديقه العظيم سليمان أباطه باشا فيقول:

لا تحملوه على الرقاب، فقد كفى ما حملت من سنة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده مذ لامسته لأورقت للرأى
خلق كضوء البدر، أو كالروض، أو كالزهر، أو كالخمر، أو كالماء

وشبائل لو ما زجت طبع الدجى ما بات يشكوه المحب الناني
ومحمد نسجت له أكفانه من عفة وسباحة وإيابه
ثم أى توفيق فى الرئاء، وأية رصانة فى البيان فوق ما جاء به حافظ حين
رثى الزعيم العظيم سعد زغلول فى بانيته المشهورة التى يقول فيها :

يا كبير القواد والنفس والآ (م) مال أين اعترمت عنا الذهابا
كيف ننسى موافقاً لك فينا كنت فيها المهيب لا الهياها
كنت فى ميعه الشباب حساما زاد صقلا فرنده حين شابا
لم ينازعك قارح القوم إلا كنت أقوى يداً وأعلى خبابا
عظم لو حواه كسرى أنوشر وان يوما لضاق عنه إهابا
وعلى الجملة فإن مرأتى حافظ تمتاز بالوفاء واللوعة والحزن العميق كلما
تناول رثاء صديق له، أو ذى منه عليه، وبالعاطفة الوطنية المحتدمة كلما رثى
عظيماً أسدى لمصر جيلاً، وفى كلها رصانة وانسجام، وطبع عربى سليم، وميل
إلى تسلسل المعنى حتى لتكاد مرأته فى تماسك أجزائها تحقق ما يدعون إليه من
وحدة القصيدة، كراثائه لباحثه البادية إذ يقول :

ملك النهى لا تبعدى فالخلق فى الدنيا سير
ربى أبوك الناشئين فعاش محمود الأثر
وسلكت أنت سبيله فى الناشئات من الصغر
ريبتن على الفضية (م) لة والتصون والحفر
وعلى اتباع شريعة نزلت بها آى السنور
فليتكم فضل على (م) أحياء أنى أودكر

وبعد فإن من الظواهر التى عرقتها من دراسة مرأتى حافظ، فلة الحفل بالفلسفة
العميقة فى البحث عن معنى الموت، والبحث عما وراء الحياة — كما كان يفعل
شوقي — ومن الظواهر الشائعة فى فنونه الثلاثة، عنايته بمطالع القصائد، فتراه
يركز معنى القصيدة فى مطلعها، ثم يتأنق ويتسامى فى حسن صياغته، فيرسله قوياً

شزوداً ينتزع الإعجاب من سامعيه ، ويحملهم على تتبع القصيدة إلى نهايتها ،
ولعل هذا من أسرار فتنة الناس بشعر حافظ .

وإليكم بعض مطالعه الرائعة :

بدأ مطولته في مهرجان شوقي بقوله :

بلا بل وادى النيل بالمشرق اسجعى بشعر أمير الدولتين ورجعى

وتهنته للعثمانيين بعيد الحرية بقوله :

أجل ، هذه أعلامه ومواكبهم هنيئاً لهم ، فليسحب الذيل ساحبه

وتهنته لسمو الخديو بأداء فريضة الحج بقوله :

متى نلتها يا لابس المجد معلماً ؟ أدينياً ودنياً ؟ زادك الله أنعماء

ورثاه لمصطفى كامل باشا بقوله :

أيا قبر ، هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والقي ضيفك جاثياً

ورثاه لسليمان باشا أباطه بقوله :

لا والاسى وتلهب الأحشاء ما بات بعدك معجب بوفاء

ورثاه للبارودى باشا بقوله :

ردوا على يائى بعد محمود إني عيت وأعي الشعر بمجھودى

ورثاه لمحمود باشا سليمان بقوله :

مسدى الجميل بلامن يكدره ومكرم الضيف أمسى ضيف رضوان

وأخيراً بدأ رثاء نفسه بقوله :

آذنت شمس حياتى بالمغيب ودنا المورد يا نفسى فطبي

وظاهرة أخرى فيما درست من شعر حافظ ، هى أنه لا يحفل بالمقدمات

الشعرية ، بل يهجم على الموضوع لأول وهلة ، وكان يرى فى تلك المقدمات

الغزلية والخرية نوعاً من التكلف والقصور ، ويرى أنها لا تليق بمدائح العظماء ،

وإلى ذلك يشير فى قصيدة يهني بها سمو الخديو بأحد الأعياد :

أزف فيه إلى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان

من الأوانس جلأها يراع قى صافى القريحة صاح غير نشوان

ما ضاق أصغره عن مدح سيده ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهل بذكر الغيد مدحته في موطن بجلال الملك ريان
هذا، وأما أسلوب حافظ في هذه الفنون الثلاثة فهو في جملته عربي قديم،
مطبوع سليم، تبدو فيه سعة الاطلاع، وغزارة المحفوظ، وخصب الشعاعية،
ويظهر في كثير من قصائده حسن الاحتذاء، والتلطف في معارضة فحول
المتقدمين.

فإذا كان حافظ في مقاصده وأغراضه عصرياً يعيش لعصره، فهو في
أسلوبه وديباجته شاعر قديم رقيق الحواشي.
رحم الله شاعر النيل، وخلد على الدهر ذكره!

محمود البسيبي



الغزل والنسيب

في شعر حافظ

المؤلف: سنان السباعي يرمى

المدرس: بدار العلوم

عهدنا بالشاعر الغزل المناسب أن نحمله على الغزل والنسيب أحد أمرين :
 فأما أولهما : فهو أن يولع بالحسن يتعشقه ويفتن بمظاهره فتنة تملأ عليه
 شباب نفسه ، ومواطن حسه . فلا يزال يسعى وراءه أنى وجده ، ويعمل الحيل
 في سبيل المتعة به جهد طاقته ؛ مدفوعاً إلى ذلك كله بطبيعة حافزة وشهوة جاححة ؛
 إذ لا غنى له حينئذ أن يتغنى بهذا الحسن غناء يبين سحر آياته ، ويرى مبلغ اللذة في
 الاستمتاع به . كما كان يفعل امرؤ القيس جاهلية ، وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة
 إسلاماً ، وأمثالهما من شعراء الغزل اللاهية ، عشاق الجمال وطلاب اللذات ،
 الذين لم يقفوا قلوبهم على حب امرأة ، وإنما وزعوا أبصارهم في مجالس الحسن
 الكثيرة ، وكلما عز عليهم مجلس أو غاض ماء روائه غادروه إلى غيره مسرعين .
 وأما ثانيهما : فهو أن يقيم بحب امرأة ، يقف عليها هواه ونفسه ، وتقابل ذلك
 منه بالابتعاد عنه ، والتمنع عليه ، لا بغضاً له وكراهية ، بل إجابة لداعي عفة ، تملأ
 عليها جوانب نفسها ، وتقطع الطريق على ما قد ينجم من شهواتها ، فإذا به يكبر هذا
 الداعي منها ، ويقابله بعفة كعفتها ، قانعاً بالزورات البريئة تقع لماماً ، فإذا أعوزته
 - وكثيراً ما تعوزته - تعلل باستعادة الذكريات في يقظته ، وطروق الطيف في هجمته ،
 إن صح أن يجد النوم إلى جفنيه سيلاً . فإنه في هذه الحال يكتر أن يشكو بثه
 وحزنه وصباوته ووجده في شعر ينتزع من القلب . ويحسن فيه التعبير عن الوجدان ،
 كما كانت حال المرقش الأكبر مع ابنة عمه أسماء في الجاهلية ، وحال جميل بن
 عبد الله بن معمر مع صاحبه بثينة في الإسلام . وأشباههما من شعراء النسيب ،

الباكي الذين أخلصوا في حبهم لواحدة ، إخلاصاً زاده بعد المنال التهايا ، وكثيراً ما جرّعهم كئوس المنون في ميعه الصبا .

فإذا أخطأ الشاعر هذان الداعيان كان قوله الغزل والنسب محاكاة من غير طبيعة ، مهما ستر من تصنعه جوك البيان ، وما صاحبنا حافظ في غزله ونسيبه إلا من هذا الصنف الثالث المحاكي عن غير دافع من الوجدان . فما عهدناه في حياته محباً لمحاسن المرأة الحسية ، شغوفاً بجمالها المادى ، يتبع الحسان ويجرى وراءهن انتهاياً للذة ، أو إجابة لنداء شهوة ، حتى يكون من الغزلين اللاهين وما سمعنا عنه أنه أغرم بحب امرأة . فصار متيباً معموداً ، يبكي لوعته . ويصف صبايته ، حتى يكون من الناسبين الباكين . وإنما الذى عرف عنه - وكان الواقع - هو أن العلاقة بينه وبين المرأة من كلتا هاتين الناحيتين . كانت مقطعة الأسباب ، حتى فيما أحل الله من زواج ، فإنه لم يتزوج قط ، ومن شذ وقال بزواجه شفع قوله بأن جبل الزبيجة فصل بعد أربعين يوماً من عقدها ؛ لما ذكرنا من تعليل .

وإذن كان حافظ فيما صدر عنه من غزل ونسب يقوله محاكاة عن كراهية لاطبيعة عن رغبة ، ولهذا وقع قليلاً في مطالع بعض قصائده ، ولم يقع كثيراً أو مقصوداً لذاته ، كما وقعت فنونه الأخرى التى كان لكل منها في ديوانه شأن هام ، وبخاصة شعر الوطنية الذى طغى فيما طغى على الغزل والنسب ، حتى لم يجعل له في ديوانه من باب ، وهذا شئ . يعرفه حافظ عن نفسه ، كما يعرفه عنه كل من قرأ شعره . سئل عن السبب فى قلة غزله فقال : « إننى رجل بدأت شبانى فى الجيش ولما رجعت لحياة الحرية انقسمت روحى فى شعر الوطنية ، فلم أجد متسعاً للغزل ، وقال عنه أديب معاصر : « الذى أعرفه أن حافظاً لا طبيعة فيه للغزل وفلسفة لجمال ، ثم إن التاريخ حصره فى الشاعر الاجتماعى ،

على أن حافظاً برغم ما ذكرنا من عدم استعداده أن يكون شاعر غزل ونسب ، ومن عدم قرضه لها إلا مضطراً وفى مطالع بعض القصيد - لم يعجز وهو الشاعر القدير أن يحسن تصوير ما عالج على سبيل المحاكاة عن طريق التصنع والتعمل ، كما أحسن شبيهه فى ذلك أبو الطيب المتنبي من قبل :

رأينا له رحمه الله ثلاثة مطالع غزلية طويلة ، ثلاث من أمهات قصائده ، حمله الداعي إلى كل قصيدة أن يبتدئها بالغزل عن غير رغبة منه ، وعلى غير عادة متبعة في سائر قصائده :

أولاهها : داليتة في مدح أمير الشعراء محمود باشا سامى البارودى التى يقول في مبدئها :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا	فما أئمت عيني ولا لحظه اعتدى
كلانا له عذر ، فعذرى شديتى	وعذرك أنى هجت سيفاً مجردا
هوننا فما هُنا كما هان غيرنا	ولكنا زدنا مع الحب سوددا
وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا	بأيسر من حكم السباحة والندى
نفوس لها بين الجنوب منازل	بناها التقي واختارها الحب معبدا

والذى يعرف علاقة حافظ بالبارودى مادحا له ومدوحاً منه ، وشغف البارودى بالغزل والنسيب شغفاً جعله يقول الكثير منهما فى مطالع قصائده ، والأكثر مستقلاً - لا يسعه إلا الجزم بأن حافظاً لا يمكن أن يرفع إليه مدحة يغفل ابتداءها بالنسيب ، تشبهاً به من ناحية ، ودفعاً لما عسى أن يمر بخاطره من أن حافظاً ليس يبالغ فى النسيب إذا أراد .

وثانيتها : العينية التى مدح بها صديقه الكاتب الأديب محمد بك هلال معارضاً بها عينيه لأستاذه البارودى فى النسيب مطلعها :

هل من قى ينشد قلبى معى	بين خدور العين بالآجرع
كان معى ثم دعاه الهوى	فمر بالحقى ولم يرجع

تلك التى يقول فى مبدئها :

هجمت يا طير ولم أجمع	ما أنت إلا عاشق مدعى
لو كنت ممن يعرفون الجوى	قضيت هذا الليل سهداً معى
يا من تحاميت سبيل الهوى	أعيذك من قلق المضجع
وحسرة فى النفس لو قسمت	على ذوات الطوق لم تسجع
ويا بنى الشوق وأهل الأنسى	ومن قضوا فى هذه الأربع

عليكم من واجد مغرم تحية الموجع للوجع
 لله ما أقسى فؤاد الدجى على فؤاد العاشق المولع
 هذا غليظ لم ير ضه الهوى ما بين جنبى أسود أسفع
 وذاك فى جنبى قى مدنف على سوى الرقة لم يطبع

فإن المعارضة من شأنها أن تجعل المعارض ينحو الفن الذى نحاها رقيقه، ويسدد سهامه إلى الغرض الذى نصب؛ لأن مراعاة ذلك أحق وأولى من الاتحاد فى الوزن والقافية، ومن هنا لم يك أمام حافظ بد أن يشبب فى مطلع قصيدته أقل ما يكون، وقد ألف البارودى قصيدته كلها نسيباً فضلاً على ما أسلفنا من دفع عجز قد يتوهم عنه فى هذا.

وثالثها: ميمية مدح بها الخديو عباساً عند عودته من دار الخلافة يقول فى مبدئها:

كم تحت أذيال الظلام متم دأى الفؤاد وليله لا يعلم
 ما أنت فى دنياك أول عاشق راميه لا يحنو ولا يترحم
 أهرمتى ياليل فى شرخ الصبا كم فىك ساعات تُشيب وتُهرم
 لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر أتعبتى وتعبت؛ هل من يحكم؟
 فإن رغبته الملحة أول حياته أن يشرك شوقيا فى ورد حياض العباس - إن لم يزحمه عليها - حملته أن يخطو خطوه ويقفو أثره فى مطالع مدائجه قبل الخوض فى صميمها، وهل كان شوقى فى تلك المطالع إلا مجوداً للتشبيب غزلاً ونسياً، فليكن حافظ كذلك. حتى لا يكون لصاحبه فى نظر العباس عليه من فضل.
 تلك هى الدوافع التى حملته فى هذه المدح الثلاث أن يتدتها بالنسب، ولولاها لشغل بالمديح عنه شغلا، مارا على النسب مرور التارك، كما فعل مع الأستاذ الإمام إذ يقول:

بلغتك لم أنسب ولم أتغزل ولما أقف بين الهوى والتذل
 ولما أصف كأساً ولم أبك منزلاً ولم أتحل نفراً ولم أتبتل
 فلم يُبق فى قلبى مديحك موضعاً تجول به ذكرى حبيب ومنزل

بل لولا ذلك لأطاع سجيته التي ما كانت ترى من إكرام الشعر أن يكون
للحب وما إلى الحب، وإنما تراه للدعوة إلى الحرية، والتغنى بها، فها هو ذا يخاطب
الشعر العربي ناعياً على أهله وضعه في غير موضعه فيقول :

حَمَلُوكَ العناء من حب ليلي وسليمي ووقفه الأطلال
وبكاه على حبيب تولى ورسوم راحت بهن الليالي
وإذا ما سموا بقدرك يوماً أسكنوك الرحال فوق الجمال
آن يا شعر أن تفك قيوداً قيدتنا بها دعاء المحال
فارفعوا هذه الكأثم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

وإنا وقد أتينا على مبادئ تلسم المطالع الثلاثة، والأسباب التي حملته على
القول فيها، نرى من الختم أن نتناول الناحية الغزلية التي ارتضاها حافظ لنفسه
حينما أرغم على الغزل، وبعبارة أخرى: الناحية التي حفزته طبيعته أن ينتحيا
حينذاك، والذي أراه من الحق أن حافظاً دفع بنفسه فيما كان يقول من غزله إلى
خطة الناسيين الباكين، كما سمعت فيما استشهدنا به، لأنه خلق يذوق من آلام الحياة
الخاصة والعامة، أشد مما كانوا يذوقون من برحاء المشق والهيام، ولكن على أن
يلبسه ذلك الثوب القصصى. الذى اتخذ الغزلون اللاهون أكثر ما كانوا يقولون،
لأنه عاش مولعاً بالقصص يتحدث ويستمع إليه، معنياً بمطالعة كتبه القديمة،
وأخصها الأغاني سميره وصاحب خلوته، عنايته بالكتابة فيه، مؤلفاً كما فى ليالى
سطيح، ومترجماً كما فى البؤساء، ومن ثم قدم لنا مادة نسيه لحة وسدى من وادى
جميل وأمثال جميل، ولكن منسوجه على منوال عمر وأمثال عمر، حتى لكأنها
الدراما جودة تشخيص وتمثيل.

استمع إليه فى المطلع الميمى بعد الذى قدمنا منه فى الليل، تجاهل محبوبته له
وعجب سربها من هذا التجاهل، وإجابته لها بأنه من عرف توجعه وتألمه وإسلامه
نفسه للهوى يحشمها ما لا تسلم منه، وأنه أنى يشكو إليها ما صنعت به يحدوه الرجاء،
لولا أنها لا ترحم، فيقول :

لله موقفنا وقد ناجيتها بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم

قالت: من الشاكي؟ تسائل سربها عى ... ومن هذا الذى يتظلم ؟
 فأجبتها وعجبت كيف تجاهلت: هو ذلك المتوجع المتألم
 أنا من عرفت ومن جهلت ومن له لولا عيونك حجة لا تُفحَم
 أسلمت نفسى للهوى وأظنها بما يحشها الهوى لا تسلم
 وأتيت يحدوني الرجا، ومن أتى متحرماً بفنائكم لا يحرم
 أشكو لذات الخال ما صنعت بنا تلك العيون، وما جناه المعصم
 لا السهم يرفق بالجريح، ولا الهوى يبقى عليه، ولا الصباة ترحم
 ثم يعقب هذا بناحية من التوسل تدور حول تملله فى جوف الدجى أمام
 فراشه يرى فى الإقدام عليه إقداماً على الموت؛ لما رشق فى جوانبه من مُدى
 وانساب فيه من أفاع، حتى لكأنة واد أطل عليه جحيم، فيقول:

لو تنظرين إليه فى جوف الدجى متمللاً من هول ما يتجشم
 يمشى إلى كنف الفراش محاذراً وجلاً يؤخر رجله ويقدم
 يرمى الفراش بناظره ويتثنى جزعاً، ويقدم بعد ذاك ويمحجم
 فكأنة واليأس ينشف نفسه للقتل فوق فراشه يتقدم
 رشقت به فى كل جنب مدية وانساب فيه بكل ركن أرقم
 فكأنة فى هوله . وسعيره واد قد اطلعت عليه جهنم
 هذا وحقك بعض ما كابدته من ناظرىك، وما كتمتك أعظما
 ومع قسمه بها فى البيت الأخير: أن ما حكى بعض ما كابد، تقابله بمقابلة الشاكة
 فى هواه، وأن هذا منه سحر يستثير به هوى الغانيات، ثم تطلب إليه أن ينصرف،
 مصغية إلى قول الوشاة، وتسرف فى هجرها إسرافاً يئس منه من أجله الطبيب،
 ويحيثها أنه تلف، فتقدم وتأتى لعيادته، فإذا هذا المحبى للتشيع، وذلك حيث يقول:

قالت: أهذا أنت؟ ويحك فائد حتام تنجد فى الغرام وتهم ؟
 كم نفقة لك تستثير بها الهوى هاروت فى أثنائها يتكلم
 إنا سمعنا عنك ما قد رابنا وأطال فيك وفى هواك اللثوم
 فاذهب بترك قد عرفتك واقتصد فيما تزين للحسان وتوهم

أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت في هجرها، وجنت على وأجرموا
 حتى إذا ينس الطيب وجاءها أنى تلفت، تدمت وتدموا
 وأنت تعود مريضها، لا بل أنت منى تشيع راحلا لو تعلم
 أقسمت بالعباس أنى صادق فمرهم بجلاله أن يقسموا
 واستمع إليه في المطلع العيني بعد الذى قدمنا منه في الليل أيضا يذكر قصة
 أغيد أسكنه حشاه، وأوحى إلى نفسه أن تقنع به، فأولاه نفاراً أسرع من خاطره،
 وصدا أقرب من مدمعه، ودام اشتعال نار خده، كأنما يقبس من أضلعه، فدنا لذلك
 مصرعه، حتى تساءلت عنه نجوم الدجى التى رأت لوعته، وسمعت منه أنين المفقود،
 أو المصاب بسهم لازال ناشباً، ثم قالت: ماله كذلك ولبدر الدجى مطلع إن كان
 فيه هاتما، ولظبي الحى مرتع إن كان به مغرماً؟ فكان جوابه للنجوم: هيهات أن
 تعلنى مثير أشجاني أو تطمئنى؛ وهذا إذ يقول:

وأغيد أسكنته في الحشا وقلت يا نفس به فاقنعى
 نفاره أسرع من خاطرى وصدّه أقرب من مدمعى
 وخده لا تنطفى ناره كأنما يقبس من أضلعي
 تساءلت عنى نجوم الدجى لما رأتنى داني المصرع
 قالت: نرى في الأرض ذالوعة قد بات بين اليأس والمطمع
 بين كالمفقود أو كالذى أصابه سهم ولم ينزع
 إن كان في بدر الدجى هاتماً أما لهذا البدر من مطلع
 أو كان في ظبي الحى مغرماً أما لهذا الظبي من مرتع؟
 هيهات يا أنجم أن تعلنى مثير أشجاني أو تطمئنى
 إني لضنان بذكر اسمه ضنى بذكر الكاتب الألمعى

أما المطلع الدالى فقد صور فيه بعد الذى ذكرنا من مبدئه في صدق الهوى
 وظهره قصة مسرّى كان منه إلى فتاة حى في ليلة مقمرة، كأنها ليلة ابن أبى ربيعة
 في رائيته:

أمن آل نعم أنت غاد فبكر غداة غد أم رائح فهجر

وانكته وهو مطلع قصيدة في مدح البارودي أمير السيف كما أنه أمير الشعراء،
لم ينس أن يكون حافظ في ذلك شجاعاً وهو رب سيف كذلك، ولم يقبل من
فتاته أن يعود متستراً كما عاد ابن أبي ربيعة متنكراً؛ وإنما عاد يصحبه قلب أيّد
وسيف خشية القوم في طروقه ورجوعه فغطوا في منامهم ليصرفوا شباه عنهم
وكان أن خاض بأحشائهم رائحاً وعائداً سالكا الطريق المعبد عامداً. وما كان
أدقه وقد نسي في هذه القصة اللوعة والحرقه أن يبتدئها بطهر الحب وتقى القلب
كما سمعت في بدء المطلع، وأن يختتمها باعتصامه بالهدى حين مالت الفتاة لإعرائه
ومالها الهوى، لا كما كان ابن أبي ربيعة يغري وتأخذ عليه فتاته سدوره وعدم
ارعوائه؛ فحى تلك القصة بهذا أن تكون من هو الغرام، وخلع عليها بما فعل
ثوب الهوى العذرى، وذلك حيث يقول بما لم نشأ تقطيع أوصاله لانا نرى من
الجرم التفرقة في هذه القصة بين الآيات - قال :

وفتاته أوحى إلى القلب لحظها فراح على الإيمان بالوحي واغتدى
تيممتها والليل في غير زيه وحاسدها في الأفق يغري في العدا
سريت ولم أحذر وكانوا بمرصد وهل حذرت قبلي الكواكب مرصدا
فلما رأوني أبصروا الموت مقبلا وما أبصروا إلا قضاء تجسدا
فقال كبير القوم: قد ساء فالتنا فإنا نرى حثفاً بحثف تقلدا
فليس لنا إلا انقاء سبيله وإلا أعلّ السيف منا وأوردا
فغطوا جميعاً في المنام ليصرفوا شبا صارمى عنهم وقد كان مغمدا
وخضت بأحشاء الجميع كأنهم نيام سقام فاجىء الرعب مرقدا
ورحلت إلى حيث المني تبعث المني وحيث حداني من هوى النفس ما حدا
وحيث فتاة الحذر ترقب زورتي وتسال عنى كل طير تغردا
وترجور جاء اللص لو أسبل الدجى على البدر ستر أحلك اللون أسودا
ولو أنهم قدوا غداثر فرعها فحاكوا له منها نقاباً إذا بدا
فلما رأتى مشرق الوجه مقبلا ولم تثنى عن موعدى خشية الردى
(٨ - صحيفة دار المعلوم)

تأدت وقد أعجبتها : كيف فتم ولم تتخذ إلا الطريق المعبد ؟
 فقلت : سلى أخشاهم كيف روعت وأسافهم هل صاغت منهم يدا ؟
 فقالت : أخاف القوم والحق قد برى صدورهم أن يبلغوا منك مقصدا
 فلا تتخذ عند الرواح طريقهم فقد يقص البازي وإن كان أصيدا
 فقلت : دعى ما تحذرين ، فإني أصاحب قلباً بين جنبي أبدا
 فالت لتغريني ومالاها الهوى فحدثت نفسي والضمير ترددا
 أم كما همت فاذا كر أنى فتاك فيدعوني هداك إلى الهدى
 كذلك لم أذكرك والخطب يلتقى به الخطب إلا كان ذكرك مسعدا

ذاك جل ما للرحوم حافظ من غزل ونسب قد سمعتموه وعرفتم كيف كان
 مذهبه فيه ولا يعدو ما عدها آياتاً منشورة شوارد أو مبتدأ بها بعض القصائد في
 قلة لا تكاد تبين ينحرف فيها المنحى الذى سبق من الهم والوجد ، أو يرى من ورائها
 إلى شيء خاص أو عام يلذ له أن يفصح عنه بصراحة لا لف فيها ولا دوران
 فمن آياته الشاردة في السهد وقد كان معترأ بالقول فيه يتناه :

قالت الجوزاء حين رأت جفنه قد واصل السهرا
 ما لهذا الصب في وله أتراه يعشق القمر

ومنها في السهد أيضاً :

أنا العاشق العانى وإن كنت لا تدرى أعيدك من وجد تغلغل في صدرى
 خليلي ، هذا الليل في زيه أتى فقم نلتمس للسهد درعاً من الصبر
 وهذا السرى نحو الحى يستفزنا فيها وإن كنا على مركب وعر
 خليلي ، هذا الليل قد طال عمره وليس له غير الأحاديث والذكر
 فهات لنا أذكي حديث وعيته ألد به إن الأحاديث كالخمر
 وعلى ذكر غرامه بالأحاديث يقول من مطلع قصيدة بعث بها إلى يرم بك
 من السودان :

وظي من بنى مصر غرير شهى اللفظ ذى خد مشيم
 ولحظ بابلي ذى انكسار كأن بطرفه سيما اليتيم

سقانا في منادمة حديثا نسينا عنده بنت الكروم
فأنت ترى هنا أن جمال الحديث صرفه عن سمات كثيرة أخرى ذكرها
للجمال كأنها قلت من أجله لالهها، وعلى هذا الرسل الذي يذكر فيه أشياء لا يريد ما
لشيء أرادته جرى قوله لغرض سياسي يرى إليه :

ظبي الحمي بالله ما ضركا إذا رأينا في الكرى طيفكا
وما الذي تخشاه لو أنهم قالوا فلان قد غدا عبدك؟
قد حرموا الرق ولكنهم ما حرموا رق الهوى عندك
فأصبحت مصر مراحا لهم وأنت في الأحشا مراح لك
ما كان سهلا أن يروا نيلها لو أن في أسياقنا لحظكا

وكذلك قوله في مطلع قصيدة إلى المرحوم قاسم بك أمين :

لحاظك والأيام جيش أحاربه فهذي مواضيه وهذي نتائجه
وهمين ضاق القلب والصدر عنهما: غرام أعانيه، وعيش أغالبه
وليل كمطل القوم كابدت طوله وأيقنت أني لا محالة صاحبه
كأن دياجيهِ صحيفة ملحد تخط بها أعماله ومثالبه
قريت به جيش الصباية والاسى وأنزلته صدراً تداعت جوانبه
وعلمت نفسي كظم غيظي ولم أبج بما فعلت بين الضلوع قواضيه
تماسكت حتى لو رأى القوم حالتي رأوا رجلا هانت عليه مصائبه
رجائي في قومي ضعيف كأنه جنان وزير سودته مناصبه

ومن شوارده في الدمع بيتاه :

يا من خلقت الدمع لطفاً منك بالباكي الحزين

بارك لعبدك في الدمو ع فإنها نعم المعين

ومنها يصف لوعته وأنيته :

أنا في يأس وهم وأسى حاضر اللوعة موصول الانين

مستهن بالذي لا يقيته وهو لا يدري بماذا يستهين

سور عندي له مكتوبة ردلو يسرى بها الروح الأمين

إنتى لا آمن الرسل ، ولا آمن الكتب على ما يحتوين
وقل أن تجد لحافظ غزلاً خلواً من ذكر التوجع والتألم إلا أن يكون مطية
لمرعى يبنى الوصول إليه ، بل لعله لم يقل فى ذلك إلا بيتين فى خال رآه على الغرة
لا فى الوجنة ، وهما :

سأله : ما هذا الخال منفرداً واختار غرتك الغر له سكناً ؟
أجابنى : خاف من سهم الجفون ، ومن نار الحدود ؛ لهذا هاجر الوطن
وهذا شيء منه غريب غرابة ادعائه صدق غرامه وعدم التشكيك فيه
حيث يقول :

أذتك ترتابين فى الشمس والضحى وفى النور والظلماء والأرض والسما
ولا تسمحى للشك يخطر خطرة بنفسك يوماً أنتى لست مغرماً
وبعد فلئن ألهت حافظاً طبيعته أن يكون قليل اللبس للمرأة فى الجانب الغزلى
كما قدمنا وعلى ما سمعت ، لقد مكنته أن يتصل بها اتصالاً وثيقاً فى جوانب
اجتماعية وسياسية وخلقية عجم بهاديواته وشغلت كثيراً من صفحاته ، ولم كنت
أود أن يكون موضوعى هذه الجوانب أو المرأة فى شعر حافظ بصفة عامة لا من
ناحية الغزل والنسيب فحسب ، لما فى تلك من خصب وفى هذه من إحمال ، لولا
ما أردت إلا بقاء عليه لحضرات زملاء الذين تناولوا شعره من تلكم النواحي ؛
وعلى كل أرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت والسلام .

السباعى يوسى

حافظ إبراهيم

المديح في شعره

بفلم مسنين حسن مخلوف

المدرس بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية

في أوائل هذا القرن ظهر في عالم الأدب شاعر كان ملء الأسماع، أسماع الخاصة والعامة في مصر، هو المرحوم حافظ إبراهيم، في وقت كانت مصر قد أفادت من صدمة الثورة العرابية وتناجها، وتطلعت إلى العزة القومية واستعادة الجند المسلوب، واحتاجت وطنيتها إلى شاعر يضرب على أوتار القلوب فيحركها، ينزل من سماء الشعراء إلى أرض الشعب، فقد كان شعر البارودي شخصياً، لا يفهمه ويتعاق به إلا الخاصة من الأدباء، وشعر شوقي تياها في أودية الخيال متعالياً على أذهان العامة، دائراً في محيط خاض اقتضته صلته بالأمير واختصاصه به، فأرادت الطبيعة أن تنضج حافظاً ليكون شاعر الشعب المكوم. وأن تحرمه حنو الآباء والأمهات ليقوى إحساسه بالآلم وليكون سريع الإجابة حين تلم بيلاده مدلهات الخطوب، ثم أرادت أن تحصن بؤسه من نعومة العيش إذ أن مصر في حاجة إلى نغمات قيثارته الحزينة تارة. الحماسية تارة أخرى. ويشاء القدر أن يحرمه وظيفة الحكومة مع شدة تطلعه إليها، ومع أن زملاءه الضباط الذين عصوا في السودان ألحقوا بوظائف الحكومة فكان لله مشيئة أن يظل حافظ مغذياً للروح المصرية، معرباً عن الأحداث القومية، حافزاً الشعب إلى النهوض، وبخاصة من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩١١ حين لحق بدار الكتب المصرية موضوعي المديح في شعر حافظ، ولكنني أريد قبل أن أخوض فيه أن أقيد النتائج التي استنبطتها من قراءتي شعر حافظ أياماً طوالاً

أولاً: يمتاز شعره بكثرة الاستشهاد بالحوادث التاريخية والقضايا الفلسفية، بما يدل أن حافظاً كان واسع الاطلاع في التاريخ والأدب، وتغلب عليه هذه

النزعة في أكثر شعره، وحوادث التاريخ بارزة في نواح كثيرة من قصائده الكبرى؛ وكأنه كان يعتبر الحوادث التاريخية والأحداث السياسية عنصراً مكملاً لكل قصيدة، فيسرف في ذلك إسرافاً شديداً

ثانياً: يرى القارى لشعره أن الروح الحزينة سارية في نواحيه المختلفة من مدح ورناء ووصف ووطنيات، وذلك من آثار يتمه وفقره في أول حياته، ثم عكوفه على قراءة لزوميات أبي العلاء المعرى وموافقة فلسفته المتشائمة لظروف حياة حافظ التعسة، وكان من أثر ذلك تفجعه على الموتى من أصدقائه كأنه سيلحق بهم سريعاً، وفي ذلك يقول:

شاهدت مصرع أترابى فبشرنى بضجة عندها روحى وربحائى
إذا تصفحت إديوانى لتقرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى
وقد امتزج تبرمه بالدنيا بالسياسة المصرية ومواقفها المشهورة فأصبحا معنى واحداً في نفس حافظ.

ثالثاً: لهذا الشاعر ميزة ليست في شعر غيره، ذلك أنه لا ينظم قصيدة لغرض من الأغراض إلا وفاه شرحاً وإيضاحاً وبياناً. كأن القصيدة موضوع درس على المدرس أن يشرحه في حصة، أو مقالة صحفية تلم بأطراف الموضوع إلماً شديداً؛ فهو شاعر مصور لكل ما يدور في خلد السامعين من معان، فإذا خلق في سماء الخيال وقف عند التشبيهات المفردة، وإذا هم أن يغوص في بحور الشعر للبحث عن لآله أدرك أنفاسه البهز فتعلق ببعض اللآلى التي تعجب العامة ويمر بها الخاصة سريعاً ثم يخرج اللؤلؤ من أصدافه في ثوب براق وحلية خلاصة، ذلك لأنه شاعر صناع يجيد السبك ويحسن الضرب بالصنع وهو شاعر الجماهير يستهويها بما تشتاق إلى سماعه من ذكر آلامها وآمالها.

رابعاً: لكل شاعر أو كاتب طابع خاص يسرى في النثر والشعر، وأسلوب وطريقة للتفكير يعرفها من عانى قراءة مستمرة لأصناف خاصة من الكتاب أو الشعراء، فيستطيع القارى أن يخبر صادقاً أن هذه القطعة لفلان من غير أن يعرف اسمه قبل ذلك بذيل المقالة أو القصيدة، وذلك ناتج من كثرة القراءة

والاشتغال بالأدب . حدثني صديق أنه كان يقرأ مقالات المنفلوطى السياسية فيعرف شخصه من أسلوبه ، وأنه قد يقرأ مقالات الرافعى أو شعر الجارم فيمر بذهنه قبل كل شيء طابعهما الذى لن ينزلا عن مستواه ؛ أما حافظ إبراهيم فقد شد عن هذه القاعدة ، فقد تقرأ له شعراً على المعنى جزل الأسلوب ، ثم تقرأ له شعراً آخر فتستريح لنفسك أن تنسبه لآى شاعر خط قصيدة فى صحيفة سيارة ، فبينما شعر حافظ يرتفع إلى سماء الأدب ، إذا به يتهاوى فى مزلقه ، وخاصة فى المدح والثناء حينما يطلب منه ذلك فيخجل أن يرد صديقا ؛ وبهذا فقد شعره وحدة التناسق واشتراك الأساليب فى كثير من قصائده . سأله محرر الهلال عن ذلك فقال : « الجمهور يلومنا على أن لنا كثيرا من الشعر التجارى ، ولكن الجمهور نفسه هو الذى يطلب منا ذلك ، ولو تركونا لعفوا أنفسنا لأحسننا ، ولكنهم يلحون علينا فى التهاوى والمرائى والمدائح ؛ ثم ينتقدوننا على أننا نطيعهم ، وكان يجب أن يراعوا هذه الظروف ، وسأطبع ديوانى بعد أن أظهره من الشعر التجارى » .

خامساً : كان حافظ فى مدحه كأنه مثال ماهر كلف بصنع تمثال بحجم الممدوح ؛ فإن كان عظيماً ذا مكر اجتماعى خطير كالخديو عباس أو الشيخ محمد عبده ، كدق رhythme وأحسن الرصف والوصف وأبرز مواضع العظمة فى ممدوحه ، وبخاصة إن كان من السياسيين الذين يحملون أوزار الأمة على عواتقهم ؛ إذ كان حافظ كثير السباحة فى خضم السياسة ، معنياً بشئون الأمة ؛ وإن كان عيناً من أعيان الريف يستطيع حافظ ألوان الطعام على مائدته ، كافأه على كرمه بمدحه بالكرم وقرى الضيفان ، وقد يغالى فى ذلك مغالاة تعجب صاحب الخوان ؛ وإن كان صديقاً مؤنساً تراخت أعصاب حافظ فى مدحه وفقد شعره قوته وتحول الشعر من المدح إلى رقة إخوان الصفاء ووصف مؤانستهم وكفى .

نشأ حافظ إبراهيم مشغولاً بالأدب متطلعاً إلى الشهرة ، وكان أقصى منى الأديب فى تلك الآونة أن يتعلق بكبير من الكبراء يقدر أدبه ويحميه من نوائب

الحدثان ، فلما عاد من السودان وكانت له مكاتبات سابقة للشيخ محمد عبده ، لزم مجلسه ورأى في الشيخ كرم النفس وعلو الهمة وعطفاً أغناه عن عطف الآباء والأقربين . رأى مجلس الاستاذ الامام حافظاً بالعضاء وأعيان مصر وكلهم عرف هذا الشاب الفكه الشاعر الراوية ، ورأى في إكرامه متاعاً بحسن استماع الأدب المصنئ وإرضاء للشيخ عبده ، لأن الشيخ الامام كان موره محدوداً وبساطه ممدوداً ، فظهر اسم حافظ في الأوساط الأدبية ، وكان شعره قليلاً ظاهر التكلف ، فاستفاد من صحة الشيخ قوة الديباجة ورصانة الأسلوب ، وكان الشيخ كما قال عنه حافظ : « يعرف مهر الكلام ومقدار كد الأفهام » ، وأغرى الأدباء حافظاً أن يمدح الخديو عباساً عله يتعطف عليه بوظيفة ، ولكن دون ذلك مشقات ، إذ كان شوقي شاعر الحضرة الخديوية ، وهو فحل قدير لن يبلغ حافظ مبلغه مهما يكن من قوة البيان ، ولأن المنافسة في هذا الميدان لا يرضاها شوقي ، فصار من دأب حافظ أن يمدح الخديو ويتلطف بمدح شوقي ويحتس من مظنة المنافسة ، وكذلك نجد قصائده في الجزء الأول من ديوانه على هذا الطراز : تقرب من الخديو ورعب من شوقي وتزلف إليه ، كما قال في احتفال بعيد الجلوس :

أرى أريكة عباس تحف بها وقاية الله والإقبال والجاه
قل للآلى جعلوا للشعر جائزة فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
لم أخش من أحد في الشعر يسبقني إلا قى ماله في السبق إلاه
ذاك الذي حكمت فينا براعته وأكرم الله والعباس مثواه

ظل حافظ يركع على عتبات شوقي رجاء أن يميل إليه قلب الخديو بدون جدوى ، ولكن حافظاً بعد سنة ١٩٠١ استفحل شعره وتعلق الشعب به لسهولة مع غموض شعر شوقي في بعض الأحيان . لقد قوى شعر حافظ وتماسكت قوافيه بعد طبع الجزء الأول ، وأصبح لحافظ جمهور من الأدباء يوازن بين شعره وشعر شوقي ، وصارت الجرائد تنعى بالشاعرين ؛ فاللصيقة بالخديو تدعو لشوقي وغيرها تدعو لحافظ وتشجعه . إذا فلينبذ حافظ لشوقي على سواء ، وليبارزه في ميدان الأدب ، وليزاحمه في مدح الخديو علانية ؛ وكان حافظ في الجزء الأول مقيداً بتقليد

الأقدمين ، فعلته معاناة الشعر ومخالطة كبار الأدباء حسن التصرف وإدخال عناصر التجديد في الأساليب والمعاني ؛ وقد لقي من الشعب إعجاباً أطار من قلبه الخوف من شوقي ، وتفق ذهنه عن المعاني الخصة والأساليب الجذابة والصراحة فيما يقصد إليه والسلامة من الالتواء الذي قد يضل بعض الشعراء ؛ نرى ذلك واضحاً في الآيات الآتية في أحد أعياد الخديو :

طف بالأريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن داني
يا عيد ، ليت الذي أولاك نعمته بقرب صاحب مصر ، كان أولاني
أزف فيه إلى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده ولا استعان بمدح الراح والبان
هذا هو الملك فليهنأ بملكه وذا هو الشعر فلتنشده أزمانى
أرأيت أن حافظاً أصاب شوقياً في الصميم ؟ فعاب شعره وهزأ باستفتاح قصائده في مدح الأمير بالغزل ووصف الخمر ، عابه بنضوب القريحة وقلة الذوق ، وذكر أنه أحق بلقب شاعر الأمير

وفي الحق أن الدوي الذي كان يلقاه شعر حافظ كان يغريه بذلك . كان نفس حافظ قصيراً في أول الأمر ، ثم طال وشغل بالحوادث السياسية وشعر الوطنية عن مدح الخديو إذ وجد نفسه تنفخ في غير نار وقد سد عليه شوقي الرحاب . ولكن هناك مواقف يفقد فيها حافظ ويعاب عليه أن يستأثر شوقي بحلبة الشعر ، فلا بد من القول ولا بد من التبريز .

من ذلك حجج الخديو فقد أبدع شوقي ما شاء له الإبداع بمختلف القصائد ، فلا بد أن يمثل حافظ . بين يدي الأمير ويلقى قصيدته البارعة في حضرته ويعمّر شوقياً أيضاً ، ومنها :

متى نلتها يا لابس المجد معلماً أدنيا وديناً ؟ زادك الله أنعماً
قلله ما أبهاك في مصر حالياً ولله ما أتناك في البيت محرماً
أقول وقد شاهدت ركبك مشرقاً وقد يمم البيت العتيق المحرماً :
مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى يفيض جلال الملك والدين منهما

ولو أتى خيرت لاخترت أن أرى لعيسك وحدي حاديا مترغا
وكان من الواجب على حافظ إذ يمدح ولي نعمته والآخذ بيده إلى سلم المجد
أن يمدح في مدح الشيخ محمد عبده على قدر جهده . ثم لما اتسع أفقه الشعرى أجاد
ما شاء في مدح أستاذه ، وجعل شعره صحيفة سيارة تدافع عن الشيخ وترد كيد
خصومه الذين اتخذوا الصحف وسيلة لنقده والزراية عليه ؛ ومن أروع شعره في
مدحه قوله قصيدة تفيض إخلاصاً وحسن إبداع وفيها خيال قوى ، حين عودة
الإمام من سياحته في الجزائر :

خشع البحر إذ ركبت جواريه خشوع القلوب يوم الحساب
وضياء الإمام يوضح للربان سبل النجاة فوق العباب
وسرى البرق للجزائر بالبشرى بقرب المطهر الآواب
أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا يرقبون الإمام فوق السحاب
ومن قوله في صد هجمات الجرائد على الشيخ :

سخرُوا من الفضل الذي أوتيته والله يسخر منهم في النار
لا تجزعن فلست أول ماجد كذبت عليه صحائف الفجار
ومن لهم الفضل في تكوين حافظ وتشجيعه ، الشاعر الفحل محمود باشا
البارودي . كان البارودي المثل الأعلى لشعراء عصره ، وكان حافظ حريصاً أن
يتخذنه أستاذاً ويقلده في شعره . ومن الهين على حافظ أن يمدح الخديو أو الشيخ
عبده أو غيرهما أما أن يبيع التمر إلى هجر ، فلا بد من كد القريحة حتى يرضى
سيد الشعراء عن شعره ، وإنما يدرك أغوار الشعر من دفع إلى مضايقه ، ويعرف
قيمة النقد الصياغة ، أما غيرهم فيتفاوت حكمهم عليه بتفاوت ثقافتهم وأمزجتهم .
لذلك تجد حافظاً حين يمدح البارودي ينسج على منواله ، ومع أنه ليس شاعراً
غزلاً فقد ابتدأ شعره إليه بالغزل ، وحاول أن يظهر بالبطولة والفروسية كما كان
يفعل البارودي ، إذ كان نمطاً من هذا النمط . وبأى شيء يمدح حافظ سيد الشعراء
وكبيرهم؟ حافظ - كما قلت - بارع في تفصيل القصيدة على قدر ممدوحه ، وأنه كزهير
لا يمدح الرجل إلا بما فيه . إنه يمدح البارودي بأحب الأشياء لديه وسلوته بعد
أن طحنه الزمان . ذلك أنه شاعر عظيم

سلبت بحار الأرض در كنوزها فأمست بحار الشعر للدردوردا
 وجئت بأبيات من الشعر فصلت إذا ما تلوها ألقى الناس سجدا
 وفي أول هذا القرن نشطت الدعوة السياسية للحكومة العثمانية ، لأنها دولة
 الخلافة الإسلامية ، وملجأ المصريين في الشدائد ، فاتجه شطر من السياسة المصرية
 إلى تركيا ، وكان من الواجب أن تحتفل مصر بالاعيد العثمانية ، وأن ينظم الشعراء
 في ذلك ؛ وشعر حافظ في هذا الباب ضخيم الأسلوب لكنه ضعيف الروح .
 وهناك ناحية بارزة في حافظ بالرغم من كل شيء ، هي إعجابه بشوقي إعجابا ملك عليه
 حواسه ، فهو معترف له أولا وآخر بالسبق والغلب ، وله في مدحه قصيدة أشبه
 بالمعلقات أنشدها في مهرجان شوقي وتعد من أبرع شعره ، ومنها :

أمير القوافي ، قد أنتت مباحيا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
 ولا أجد في تقدير حافظ أبلغ من رثاء شوقي إياه :

وغدا سيد كرك الزمان ولم يزل في الناس إنصاف وحسن جزاء
 خلقت في الدنيا بيانا خالدا وتركت أجيالا من الأبناء

وكان المهرجان الذي أقيم لحافظ في الأسبوع الثاني من شهر مارس سنة ١٩٣٧
 في (دار الأبرار) الملكية صدى لدعوة شوقي

مسنين مسن مخوف

في الأمم السامية

للمؤلف: الأستاذ محمد محمود جمعة

أستاذ في الآداب ورفيق بالمجمع الملكي البريطاني للأجناس البعيرية
وعضو الجمعية الملكية البريطانية للأبحاث الآسيوية
والمدرب بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن

— ٢ —

مهد الساميين

من أين أتى الساميون؟ وفي أي البيئات نشأت حضارتهم الأولى؟ هذا سؤال عويص لم يهتد العلماء إلى الإجابة عليه بعد، ولهم في ذلك آراء مختلفة وبحوث طويلة سنلخصها لك فيما يلي تلخيصاً، ثم نشفعها برأينا في ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى (١) الرأي الأول - رأى القائلين بأن بابل هي المهد الأول للساميين - وهو رأى فون كرم و غويدي وهومل وغيرهم من العلماء. وأول من نادى بهذا الرأي هو فون كرم في مقالين نشرهما في سنة ١٨٧٥ في العدد الأول والثاني من المجلد الرابع من صحيفة Das Ausland. وبعد أن سرد عدداً من الكلمات المألوفة في مختلف اللغات السامية، لاحظ أن لفظ الجمل يوجد في جميع تلك اللغات، على حين أنه ليس بينها لفظ واحد مشترك يدل على النخل أو التمر أو النعام مثلاً، فاستنبط من ذلك أن الساميين عرفوا الجمل حيث لا أثر للنخل والتمر والنعام، فوجد ذلك ثم نظر في أي الجهات يوجد الجمل حيث لا أثر للنخل والتمر والنعام، فوجد ذلك في هضاب آسيا الوسطى قريباً من منبع سيحون وجيحون، فقاده هذا إلى القول بأن ذلك هو المكان الأول الذي هاجر منه الساميون الأول، وأن هجرتهم تقدمت هجرة الآريين والشعوب الجرمانية. وهو يعتقد أن الساميين بعد نزوحهم من تلك الجهات، ألقوا عصا تسيارهم ببلاد ما بين النهرين، التي هي

في رأيه أقدم مراكز الحضارة السامية (١)

وفي سنة ١٨٧٩ نشر العالم الإيطالي اغناطيوس غويدى مقالا عن مهد الساميين ظهر في جملة ما ظهر في صحيفة Reale Academia dei Lincei وتشبه النتيجة التي وصل إليها تلك التي قررها فون كرم، إلا أن طريقته في الاستنباط كانت أوسع دائرة وأفسح مجالا. فبعد أن سرد مختلف الكلمات التي تدل على تضاريس الأرض، سهولها وجبالها، وهادها ونجادها، وأسماء الفصول والمناخ، والشمس والقمر، واختلاف الليل والنهار، وما على سطح الأرض من حيوان ونبات، وماء وجماد؛ قرر أن بابل هي مهد الساميين الأول، وأن هجرتهم إليها كانت من الجنوب الغربي لبحر الخزر (٢).

ويميل إلى قبول هذا الرأي الاستاذ دريقر في الطبعة الثانية من كتابه استعمال الأفعال في اللغة العربية، (٣).

ولا تختلف آراء هؤلاء التي نشرها في سنة ١٨٧٩ عن ذلك كثيراً؛ وهو يرى أن وادي الفرات وأرض بابل هي مهد الساميين الأول. وأن أناساً نزحوا من بابل إلى مصر واستعمروها، وأن حضارة الثانية مستمدة من حضارة الأولى (٤). هذا هو الرأي الأول، وهو رأى طائفة من العلماء فقط، وليس عليه الجمهور؛ ونلاحظ هنا أن الطريقة التي اتبعها أصحاب هذا الرأي ليست هي الطريقة القويمة للبحث العلمي الصحيح، وقد رفض نولدكه قبول هذا الرأي (٥).

ويرى ونحن معه أن عدم وجود كلمة مشتركة بين جميع اللغات السامية لمسمى من المسميات، لا يدل على أن الساميين كانوا يجهلون المسمى الذي تدل عليه الكلمة.

(١) Wright's Comparative Grammar of the Semitic Languages, P. 5.

(٢) I bid P.6. The title of Guidi's paper is «Della sede primitiva dei popoli Smitici»

(٣) Driver, Use of the Tenses in Hebrew, P. 250 n. راجع

(٤) Hommel, Die semitischen Volken und Sprachen, P. 68 راجع

(٥) Noldeke, Semitischen Sprachen, P. 3 ff. راجع

إذ ربما كان ذلك راجعاً إلى حلول كلمة محل كلمة أخرى لأسباب وظروف لا يمدتنا الآن تحليلها.

(٢) رأى الثانى - رأى القائلين بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين الأول، وهو رأى سبرنجر و سويس وشريدنر ودى جويه وغيرهم من جمهرة العلماء. وأول من صدع بهذا رأى هو العلامة سبرنجر Sprenger ، فى سنة ١٨٦١ (١) وقد بنى دعواه على أسس اجتماعية وعمرانية ، وبين بوضوح أن الأمم الزراعية لا ترجع القهقرى إلى طور البداوة والقيام على الإنعام ، وأن العكس فى ذلك صحيح. وقد برهن على أن نجد أ هى المهد الأول الذى درج فيه الساميون ، وأنها هى التى وسمتهم بميسمها وطبعتهم بطابع الصحراء الذى لا يمتحى ؛ ثم ختم بحثه فى موضع آخر بقوله : « فى اعتقادى أن الأمم السامية إن هى إلا طبقات تترى من العرب نزحت من الجزيرة العربية طبقة أثر أخرى ؛ ومن ذا الذى يعلم كم طبقة من تلك الطبقات قد تقدمت هجرة الكنعانيين الذين نجدهم فى بدء العصور التاريخية الأولى (٢) ».

وفى سنة ١٨٧٢ قرر الأستاذ سيس فى مقدمة كتابه « نحو اللغة الآشورية » (٣) أن جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هى المهد الأول للساميين ، وأنها هى الجزء الوحيد من الدنيا الذى بقى محتفظاً بخواصه السامية الخالصة ، وأن الخصائص الشعبية : كالضراوة وشدة العقيدة وقوة الخيال وحب الاستقلال - ترجع كلها إلى أنهم نشأوا نشأة صحراوية خالصة .

وفى سنة ١٨٧٣ وصل شرادر (٤) إلى النتيجة نفسها بعد استقراء وتقصى للعلاقات الدينية واللغوية والجغرافية والتاريخية بين الأمم السامية المختلفة .

(١) راجع 1, P. 241. Sprenger, Das Leben und Lehre des Mohammad

(٢) راجع 293 and Wright's Alte Geographie Arabiens, P. Comparative Grammar, P. 7.

A. H. Sayce, Assyrian Grammar, P. 13.

(٣) راجع Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitz der Semiten"z DMG, XXVII, P. 420 ff.

(٤) راجع مقالة

وفي سنة ١٨٨٢ أعلن دى جويه ، De Goeje ، في خطابه لدى المجمع العلمى أنه يؤثر الرأى القائل بأن وسط الجزيرة العربية هو المسكن الأول للجنس السامى على وجه العموم . وهو يرى ما رآه « سبرنجر » من قبل وما رآه ابن خلدون من قبلها ، من أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها ، وأن خشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، وأن التمدين غاية للبدوى يجرى إليها ويسمى لها ، وأتتا إذا فقتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية مصر ، وعدلوا إلى الدعة والترف الذى يهينه الحضرة ؛ ويرى فوق ذلك أن أعراب الجزيرة العربية نزحوا طبقاً بعد طبق إلى الجهات الدنيا من سوريا وبابل وعمان واليمن ، طلباً للخفض والدعة ؛ وأن غيرهم من الأعراب قضى على آثارهم في فترات مختلفة ، ثم غلبهم على مساكنهم التى سكنوها من قبل ، والجأهم إلى أن يضربوا فى الأرض عرضاً وطولاً ؛ وهكذا دواليك حتى عمر الساميون بالتدريج ما سقت دجلة والفرات إلى حدود أرمينية وكردستان وبعض جهات أخرى من أفريقية ووادي النيل ؛ وقد نبهنا دى جويه ، إلى جودة مناخ الجزيرة العربية وأثره في وفرة عقول العرب وفراة أجسامهم (١) ثم هو إلى ذلك يرى أن العربية هى أقرب اللغات إلى السامية الأولى . ونحن لا نوافق دى جويه ، على ملاحظته الأخيرة ، ولنا في ذلك رأى خاص سندلى به في مكانه إن شاء الله تعالى

وفي سنة ١٨٩٠ قبل الاستاذ « ريت » Wright آراء دى جويه ، وأوردها في شيء من التفصيل في كتابه « مقارنة نحو اللغات السامية » ، ثم شفعها بملاحظة قصيرة قال فيها : « إن اجتياح العرب ما حولهم من المدن والأمصار في العصور التاريخية الأولى ، كثيراً ما تكرر في العصور التاريخية الحديثة . وفي القرون الأولى للمسيحية كانت دولة تدمر محكومة بفرقة من تجار العرب وأشرفهم » (٢) .

Het Vaderland der semitische Volken.

(١) راجع

(٢) راجع W. Wright, Comparative Grammar of the Semitic Languages P. 8.

ونحن نقول: إن أنساب العرب تحت راية الإسلام في فتوحه الأولى، ونزوح القبائل إلى الأمصار، وغلبة كل قوم على ما أمكنهم من الأرضين، يكاد يصور لنا بدقة حركات الساميين الأولى وتدققهم المتواصل إلى ما حولهم من القرى والأمصار في العصور التاريخية الأولى وعصور ما قبل التاريخ. هذا، وقد حذا ذو من ذكرت من العلماء، وهوبرت جريم، في كتابه، محمد، (١) و بروكلان، (٢) و كنج، في كتابه، تاريخ سومر وأكاد، (٣) و شولن، في دائرة المعارف الكاثوليكية و جون مير، و استانلي كوك، (٤) و كروبر، و إرمان، شيخ العلماء في الآثار المصرية و دى مورجان، وغيرهم. ويرى، كروبر، (٥) أن جزيرة العرب كانت أشبه شىء بخليج النحل، وأن بعض انبعاث الساميين إلى ما حولهم من البلدان كان انبعاث غزو وفتح منذ أول يوم، وبعضه كان غلبة بالعنف والقوة بعد جهاد وكفاح طويلين، بينما كان البعض الآخر تسلا واندماجا.

وقد استطاع، كروبر، أن يميز بين أربع هجرات سامية مختلفة في العصور التاريخية القديمة: أولاها حوالي ٣٠٠٠ سنة ق م، والثانية حوالي ٢٠٠٠ سنة ق م، والثالثة حوالي ١٤٠٠ سنة ق م، والرابعة حوالي ٧٠٠ سنة ق م؛ ثم جاء أنساب العرب تحت ألوية الإسلام بعد ذلك بنحو أربعة عشر قرناً.

أما إرمان، و دى مورجان، فيذهبان إلى أبعد من هذا: يذهبان إلى القول بأن جزيرة العرب هي مهد الساميين والحاميين معاً، وأنها هي المقر الذي هاجر منه المصريون القدماء إلى وادى النيل (٦)، وأن الجنس الحامى إن هو إلا

(١) راجع Hubert Grimme, Mohammad, 1904, PP. 6 - 8.

(٢) راجع Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprache.

(٣) راجع History of Sumer and Akkad, P. 119.

(٤) راجع Cambridge Ancient History, 1, 192.

(٥) راجع A. L. Kroeber, Anthropology, P. 451.

(٦) راجع De Morgan, Recherches sur les origines de l'Egypt 1897, II, 219, 222 and 228.

جنس سامي تغيرت صفاته ، واختفت مميزاته على مر الزمن ؛ لاختلاطه بزنج أفريقية (١)

ويعتقد دى مورجان ، أن جزيرة العرب كانت معمورة قبل العصر الجليدي الأخير ، وأنه لما جاء أمر ربك وفار التتور ، وطغى عليه الماء في آخر ذلك العصر ، آوى كثير من سكانها إلى حضرموت ، والجبال المشرفة على البحر الأحمر (بحر القلزم) يعتصمون بها ، حتى إذا أقلمت السماء ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، عاد فعمر هؤلاء ومن تحدر منهم جزيرة العرب أكثر مما عمرها أبائهم الأولون ، وكان منهم الساميون الذين هم موضع حديثنا اليوم (٢) هذا هو الرأي الثاني وعليه جمهور العلماء .

ونلاحظ هنا أن جل أصحاب الرأيين المتقدمين هم من فقهاء اللغة وعلماء الرأي السامي .

(٣) الرأي الثالث - رأى القائلين بأن شمال إفريقية هو المهد الأول للساميين قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب ، وهو رأى د بالجريرف (٣) ود جرلانند (٤) ، ود برتن (٥) ، ود موريس جسترو (٦) ، ود كين (٧) ، ود ورنل (٨) ، وغيرهم من الشعوبيين .

(١) راجع Erman's artical in « Die Tlexiondes agyptischen Verbums »

(٢) راجع De Margan « Prehistoire Orientale, 1, PP. 202, 208-9 »

(٣) راجع Palgrave's artical « Arabia » in the Encyc. Brit.

(٤) راجع Gerland's artical « Ethnography » in the Iconogra- phic Encyc. Vol. I.

(٥) راجع Journal of the Anthropological Institute, XI, 431.

(٦) راجع Jastrow, Cradle of the Semites, P. 13.

(٧) راجع A. H. Keane, Ethnology, and Man, Past and Present.

(٨) راجع W. H. Worrell, A Study of Races in the Arcient East.

ويرى ، بالجريف ، أن الشبه الجنسي القوى بين العرب والأجاش وأمم البربر وغيرهم ، وخصوصا في شكل الفك ، ودقة عظم الساق ، ثم شدة الشبه الاجتماعي واللغوي بين تلك الأمم يدعو إلى القول بأن الساميين الخالص ليسوا من أصل أسوي وإنما جاؤا إلى جزيرة العرب من إفريقية .

وقد وصل ، جرلاند ، إلى النتيجة نفسها على أساس الشبه الجسمي - كشكل الجمجمة مثلا - والشبه اللغوي أيضا ، وهو يزعم أنه يمكن رد جميع الأمم السامية إلى أصل إفريقي ، وذلك لأنه يعتقد بالوحدة الجنسية لشعوب إفريقية ، ويعتبر الساميين فرعا منها .

وفي سنة ١٨٨٢ دافع ، برتن ، عن هذا الرأي دفاع الأبطال ، وذهب إلى القول بأن الساميين والحاميين ريبيا أرض واحدة ، هي شمال إفريقية ، وأنه لما فصلت الأمم السامية إلى جزيرة العرب ركبت طريق السويس إلى بطرة ، حيث ألفت عصاها واستقرت بها النوى ، واكتسبت خصائصها الشعبية ، وبميزاتها الجنسية . وفي سنة ١٨٨٢ أيضا قبل ، نولدكه ، هذا الرأي ، ولكنه ذكره كفرض محتمل لا نظرية ثابتة (١) .

وقد حاول ، برتن ، (٢) في كتابه ، مهد الساميين ، أن يعين الموضع الذي هاجر منه الساميون في شمال إفريقية ، وهو يقول : إن الأساطير المشهورة ، وعلم مقارنة اللغات ، وعلم الشعوب ، وعلم العمران ، تدل كلها على أن أودية جبال الأطلس الجميلة المشرفة على المحيط ، هي مهد الساميين الأول قبل نزوحهم إلى جزيرة العرب .

أما ، ريلي ، فبعد أن عرض الآراء المختلفة في كتابه ، شعوب أوربا ، ختم بحثه بقوله : إن خصائص العرب الجسمية تؤيد رأي ، برتن ، و ، جسترو ، في أنهم انحدروا من أصل إفريقي (٣) .

(١) راجع Noldke, Die Semitischen Sprache, p. 9, also, his

Artical « Semitic Languages » in the Encyc. Brit.

(٢) راجع Cradle of the Semites, Also Races and Peoples, p. 132.

The Races of Europe, p. 376.

(٣) راجع

ويرى د. كين، (١) أن جهات موريتانيا أو بلاد المغرب هي مهد الجنس القوقازي بأجمعه، بله الساميين والهاميين، وأنها البقعة التي فصلوا منها إلى مساكنهم المختلفة، ثم عاد قد ذكر في كتابه، الإنسان ماضيه وحاضره، أن جزيرة العرب هي الوطن الأول الذي استوطنه الساميون بعد خروجهم من إفريقيا، والذي منه تفرقوا أيادي سبا وأما شتى إلى مساكنهم القومية (٢) هذا هو الرأي الثالث وهو رأي الشعوبيين على الخصوص.

ونلاحظ هنا أن هذا الرأي لا يتعارض مع الرأي القائل بأن جزيرة العرب هي مهد الساميين؛ إذ معنى ذلك أن الجزيرة العربية هي الوطن الأول الذي سكنه الساميون بعد خروجهم من إفريقيا والذي فيه تكونت خصائصهم الشعبية، ومميزاتهم الجسمية، والذي منه تفرقت شعوبهم المختلفة إلى مساكنها القومية المتباينة.

(٤) الرأي الرابع

موعدنا به العدد التالي إن شاء الله تعالى ..

محمد محمود محمد

دار العلوم والمتنبي في لندن

بقلم مبر الرزاز، إبراهيم صميحة

بعضة اللغة الانجليزية بجامعة لندن

بين دار العلوم والمتنبي محبة أكيدة وودمتين، وقد عرقتهما في مصر صديقين تجمع بينهما أواصر الدين، وأسباب اللغة، وعرقتهما كلا منهما أحب ما يكون إلى الآخر، لما بينهما من تشابه في نباهة الشأن، وسمو المكانة، وبذل أقصى الجهد في رفع علم اللغة العربية والتعريف بفضلها في كل مكان. وما كنت أحسبني أظفر بالفرصة التي يلتقيان فيها في مغارب الأرض، وأشهد كيف يكون تقدير الفضل والنبوغ والعبقرية، بمن يفهمون الفضل والنبوغ والعبقرية، حتى سنحت الفرصة في أكتوبر الماضي، في لندن حاضرة الدنيا وأم الأمصار، حيث بعث المتنبي حياً، واحتفل بعيدة الألفي هنا، كما احتفل به في مشارق الأرض، واشتركت لندن في مهرجانه، وساهمت في تمجيده، وأوسعت صدرها لحفلات ثلاث تغني القوم فيها بذكاء المتنبي ونبوغه، وتحدثوا عن طموحه وآماله. كانت حفلة السفارات العربية أولى الحفلات، أقيمت في دار السفارة المصرية. وفي هذه الحفلة تم التعارف بين المتنبي والمحققين به على يد بروفيسور جب أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن، وقد قدمه خير تقديم، وتكلم عن رحلاته بين البادية والشام ومصر والعراق، ثم ألفت رئيسة جمعية الشعر الانجليزية وهي إحدى كرام العقيلات شيئاً من شعر المتنبي، مما ترجمه بروفيسور نيكلسون، أستاذ اللغة العربية في جامعة كمبردج، فكان القاؤها جميلاً جداً، وبخاصة القاؤها ترجمة قول المتنبي.

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليله فأرت ليالى أربعا واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معاً وكانت الحفلة الثانية حفلة الجمعية الاسيوية الملكية برياسة بروفيسور مرجليوث، وتكلم فيها بروفيسور نيكلسون فأبدع في تحليله ودراسته للنتنبي، وبخاصة موازته

بينه وبين شكسبير وبوب ، فحمد له ناحية الشعر الذى جرنى بجرى الأمثال .
أما الليلة الثالثة فكانت فى دار النادى المصرى ، أقيمت الحفلة فى يوم السبت
١٧ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ . وكانت فريدة فى نوعها ، بدبعة فى تنظيمها ، بدا فيها
المنبى على غير عهد الناس به شاعراً يكتب للمسرح ويبدو هو نفسه ممثلاً قديراً .
ولم لا ؟ ألم تكن حياة المنبى قصة مسرحية طريفة قام هو فيها بالدور
الأول ، وأنشد فى كل فصل منها من آيات الحكمة والموعظة الحسنة ما لم يفعله
شاعر قبله ولا بعده فى اللغة العربية إلا شوقى رحمه الله ؟

وقصة ذلك أن لجنة النادى عهدت بأمر حفلتها إلينا أبناء دار العلوم ممثلين فى
شخص أخى إبراهيم أنيس ورأينا نحن أن نكون كالعهد بنا أكفاء لكل
ما نضطلع به ، وأن تكون حفلتنا على غير مثال سبق . ماذا نفعل ، ونحن نعلم من
برنامج الحفليتين الأوليين أن المنبى سيكون موضوع كلام طويل وخطب ودراسة
وتحليل لشعره ونفسيته ، وسوف تترجم بعض آثاره ويتلى بعضها باللغة العربية ،
وسوف يتحدث عن ذكائه ورحلاته إلى سيف الدولة وكافور وابن العميد ؟

« ما رأيكما فى قصة مسرحية عن المنبى ؟ » كان هذا رأياً عرضه الأستاذ
خلف الله ونحن فى طريقنا ذات ليلة إلى بيوتنا قائلاً : أما أنا فأنتهد أن أمدكم
بالحوادث . ولكن من الذى يتخير منها حادثة تكون رواية من فصل واحد ؟ ومن
الذى يستخرج من شعر المنبى قصة مسرحية تجمع بين الفكاهة والصدق وسهولة
الفهم . ومن أولئك الذين يلقون شعر المنبى تمثيلاً فيحسنون إنشاده ويظهرون
جزالته إذا لم نكن نحن الذين يفعلون ؟

ألقينا عبء التأليف والإشراف على إخراج الرواية واختيار الأشخاص
على أنيس فكان جوابه « حمل بغير وأنا به زعيم » . ونحن نعلمه وهو با فى هذه
الناحية ، مغرماً بالتمثيل والتأليف المسرحى ، وعنده روح الفكاهة العذبة ، وهو كفيل
بإخراج رواية تسر الجمهور وتحبب إليه السيد أحمد بن الحسين - المنبى - ولأنيس
كثير من السوابق فى هذا الباب ، وعندنا أشخاص الرواية أجمعون . وكان على
المؤلف أن يكتب لكل منهم دوراً يناسبه على أن تتفق الحقيقة والخيال إلى حد ما .

أما أشخاص الرواية فهم أربعة :

سيف الدولة - وقد مثله أنيس خير تمثيل .

ابن خالويه - إمام من أئمة النحو كما نعلم جميعاً ، وكانت بينه وبين المتنبي عداوة يذكها أبو فراس الحمداني من ناحية واعتداد المتنبي بنفسه وعدم اهتمامه بأقوال النحاة وتقديم من ناحية أخرى - قام بهذا الدور عبد العزيز أمين خير قيام ، ونال إعجاب الذين شهدوا الحفلة جميعاً . وذلك أنه وافق دوره كما وافق شن طبقه ، في المثل العربي ، وكانت شواهد الاستغانة وأمثلة التعجب تثير من إعجابه ، ويبدى هذا الإعجاب بطريقة تثير السرور ، وتحمل على الضحك والاستحسان . المتنبي - مثله خلف الله . ومن أحق منه بتمثيله ؟ إنه شاعر جهير الصوت ، عربى الوجه واليد واللسان . حلوا الإلقاء والنبرات .

أبو الحسن - رواية المتنبي وصديقه وناصره على ابن خالويه - وهى شخصية تخيلها أنيس ، كما تخيل أنى أحفظ من الشعر العربى - للمتنبي وغيره - مقداراً لا بأس به ، ولم أكن قد علوت مسرحاً قبل هذه المرة ، ومكث أنيس يعلنى زمناً كيف أكون ، أبا حسن ، فكنت بعد لآى وعناء وتخوف .

وعند ما لبست العباة والعقال تملكنى السرور ، وقلت

ولبس عباة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف

وعند ما انتهت الرواية طلبت من أنيس أن نعيد تمثيلها مرة أخرى لأنفسنا من غير الجمهور ، فضحك منى ولم يوافقنى أحد من بقية الإخوان .

أما الذين شهدوها فقد سروا جداً ، وكان من بينهم الأستاذ عبد الرحمن بك حقى القائم بأعمال المفوضية عندئذ ، والمرحوم حسن باشا خالد أبو الهدى رئيس وزارة شرق الأردن وبروفسور جيب ودكتور تريتون من مدرسة اللغات الشرقية والسير دنصون روس مدير المدرسة .

وكانت الحفلة فى جملتها دار العلوم والمتنبي فى لندن ، كما قال جل الذين شهدوها ، وكانت خير ما يمدن أن يحدث فى مثل هذه الظروف ،

عبد الرزاق إبراهيم صمبده

بنة اللغة الانجليزية بجامعة لندن

المتنبي في مجلس سيف الدولة

رواية تمثيلية ذات فصل واحد

بقلم ابراهيم أنيس

عضو اللجنة النهمية بأجملنا

«سيف الدولة يلعب الشطرنج مع ابن خالويه ، ويجوارهما أبو الحسن الراوية ،
سيف الدولة «مقهقهأ» : عليك أن تحمي مليكك يا ابن خالويه .

—بذا قضت الأيام ما بين أهلها : مصائب قوم عند قوم فوائد
ابن خالويه : أعز الله مولاي الأمير ، والله إن فرسك في صياها فوق
لوح الشطرنج . لى فرسك في ميدان القتال

وما الخيل إلا كالصديق : قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرب
أبو الحسن : إن مليكك ومليكي في أمن من الخوف ، وما هذه الأليعات
إلا خشب مسندة

فرب غلام علم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الدولة الضربا
إذا الدولة استكفت به في ملة كفاهها ، فكان السيف والكف والقلبا
ابن خالويه : نطقت صواباً ولكن أتعرف لم لم تنصب كلة «خشب» ،
في قولك «ماهى إلا خشب مسندة» ؟

سيف الدولة : يا ابن خالويه عرفناك نحوياً ضليعاً فدع أبا الحسن وحاله
إنه وإن لم يدر من النحو ما وعيت ، لهو بالكتابة والرواية جد علم
علم بأسرار الديانات واللغا له خطرات تفضح الناس والكتبا
أبو الحسن : أدام الله حياة الأمير ، لقد تعودت مثل هذا القول من ابن
خالويه وغيره ، ولكنه الزمن أيها الأمير :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال
ابن خالويه : قاتلك الله . لقد أعدت إلى سمعى ذكر «حتى» ، راحم الله

سيبويه حين قال : « ساموت وفي نفسى شئ . من حتى ،
سيف الدولة ، بعد لعبة مدهشة من ابن خالويه ، : لعنك الله ! ضيقت على
الحصار ، فلا أرى مخرجاً

أظمتنى الدنيا ، فلما جئها مستسقياً ، مطرت على مصائبها
ابن خالويه : ألا ليت شعرى .
أبو الحسن ، مكلاً ،

هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها ولا أتعجب
وبى ما يذود الشعر عنى أقله ولكن قللى يابنة القوم قلب
سيف الدولة : والله لكأني لم أسمع هذا الشعر من قبل ، لمن هذا ؟
وفيمن قيل ؟

ابن خالويه : كيف يكون في ممدوح غير سيف الدولة
أنت الذى لهج الزمان بذكره وتزينت بحديثه الأسفار
وإذا تنكر فالفناء عقابه وإذا عفا فغطاؤه الأعمار
أبو الحسن : إنه المتنبي يمدح الأمير ، وهو القائل فيك .
من للسيوف بأن تكون سميحاً فى أصله وفرنده ووفائه
سيف الدولة : ألم يكن هذا فى القصيدة التى أجاز بها أياتك ؟ فإذا كان مطلعها ؟
أبو الحسن : مطلعها - أعز الله الأمير :

يا لائئى كف الملام عن الذى أضناه طول سقامه وشقائه
ابن خالويه : ردى ! وإنه لو قال أضناه سباهه لكان خيراً .

سيف الدولة : أحسنت يا ابن خالويه فى نقدك للمرة الأولى .
ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدهما تميز الأشياء

أبو الحسن : ما زلت أعترف بأبياتى هذه حتى أجازها المتنبي بقوله :
عذل العواذل حول قلب التائه وهوى الأحبة منه فى سودائه
فأصغر من شعرى هذا القول .

ابن خالويه : « ساخراً » : لم لا نلقبك راوية المتنبي ؟ إنى أراك تسرف فى

الثناء عليه وهو لم يأت مجدداً ، رحم الله عنقرة حين قال :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

سيف الدولة : يا ابن خالويه ، كن عادلاً في حكمك ، وحاول أن تفهم الشعراء من طريق غير طريق النحو .

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟
أبو الحسن :

مضت الدهور وما أتيت بمثله ولقد أتى فعجز عن نظرائه

ابن خالويه : إنك لتزيده بمثل هذا القول غروراً ، وهو القائل :

الحيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فليت شعري ماذا أبقي للأمير اوصف نفسه بالرياسة والسباحة والفصاحة ،
يمدح نفسه بما يسرق من كلام غيره ، ويأخذ جوائز الأمير .

سيف الدولة : إنه شغل عني بالمديح في نفسه ، واقد كتبت له بهذا وتنكرت
له بعض الشيء .

وإنى لنجم تهتدى بي صحتي إذا حال من دون النجوم سحاب
وللسر منى موضع لا يناله نديم ، ولا يفضى إليه شراب
« ثم يشرب الكأس ،

أبو الحسن : لعل الأمير يذكر اعتذاره عن هذا بقوله :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل الكلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيا مراراً

ابن خالويه : لاحول ولا قوة إلا بالله ، والله إن الشعراء ليتبعهم الغاوون
كيف يموت مرار ويحيا مراراً ؟ والله إن الموت لموتة واحدة .

سيف الدولة : مقهها ، : يا ابن خالويه ، رفة عنك . فما أشعر إلا خيال
يلذ به السامع ، كما يلذ الشارب بالخير :

« يا ساقى ، على بالصبا » ،

أبو الحسن :

لأحيتي أن يملئوا بالصافيات الأكوابا
وعليهم أن يذبلوا وعلى ألا أشربا
ابن خالويه : والله إن المجلس بغير الشراب ، لكالكلام بلا إعراب .
سيف الدولة : لقد كتبت إلى المتنبي أستدعيه .

و يدخل المتنبي منشدا ،

فهمت الكتاب أبر الكتب فسمعا لأمر أمير العرب
وطوعا له وابتهاجا به وإن قصر الفعل عما وجب
وما عاقني غير خوف الوشاة ، إن الوشايات طرق الكذب
السلام على مولاي الأمير ومن بحضرته :

سيف الدولة : وعليكم السلام . اجلس يا أبا الطيب .

أبو الحسن : كيف رأيت خلعة الأمير يا أبا الطيب ؟

المتنبي :

فعلت بنا فعل السحاب بأرضه خلع الأمير وحقه لم نقضه
فكان صحة نسجها من لفظه وكان حسن نقائها من عرضه
ابن خالويه : لست أستسيغ قولك : فعلت بنا ،
سيف الدولة : مقهقا ، لعنك الله يا ابن خالويه .

ابن خالويه : إن هذا القول في رداءته يذكركني بقصيدتك التي قلت فيها :
ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيل وأنا إذا أقمت الخيام
والتي جعلت فيها الخيام فوق الأمير .

المتنبي :

لقد نسبوا الخيام إلى علاء أبيت قبوله كل الإباء
وما سلمت فوقك للثريا ولا سلمت فوقك للسماء

سيف الدولة : أحسنت يا أبا الطيب ، هل لك في كأس من الشراب ؟

أبو الحسن : رحم الله يماك التركي ، فقد كان طوع الأمير في مجلس
شرابه ، ألسن القائل ترثيه :

لا بقی یماک فی حشای صباة إلى کل ترکی النجار جلیب
ابن خالویه : کف عن هذا ، ولا تذکر الأمير بخادمه المحبوب ؛
فما ماضی الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد
سيف الدولة : یا أبا الطیب ، ألا یذکرک هذا الشطرنج بیوم لنا
أنشدتی فیہ ؟

المتنبى : لقد کان هذا فی يوم مطیر .

أبو الحسن :

ألم تر أیها الملك المرجی عجائب ما رأیت من السحاب
تشکی الأرض غیبه إلیه وترشف مائه رشف الرضاب
وأوهم أن فی الشطرنج همی وفیک تأملی ولك انتصابی
ابن خالویه : قبیح . قبیح ورب الکعبة ، ، ولك انتصابی ، ؟
سيف الدولة : یا أبا الطیب إستمع لما أنشد ، علی أن یحیزه ارتجالاً :
خرجت غداة نفر أعترض الدمی فلم أر أحلی منك فی العین والقلب
المتنبى :

فدیناک أهدی الناس سهما إلى قلبی وأقتلهم للدارعین بلا حرب
تفرد بالاحکام فی أهله الهوى فأنت جمیل الخلف مستحسن الکذب
وإنی لممنوع المقاتل فی الوغی وإن كنت مبذول المقاتل فی الحب
أبو الحسن : صدقت وبررت ، والله إن الشعر فی أسمى درجاته لا یلذ
السمع إلا حین يتحدث عن الحب ، وإن أنس لا أنس قولک یا أبا الطیب :
وفتاة العینین قتالة الهوى إذا نفحت شیخاً روائحها شبا
لها بشر الدر الذی قلدت به ولم أر بدرأ قبلها قلد الشها
فیاشوق ما أبقی ویالی من النوى ویادمع ما أجرى ویقلب ما أصبی !
ابن خالویه : إن البیت الآخر لشاهد حسن لباب الاستغاثه ! ولكن
خیر من هذا الشعر قول القائل :

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدا ومن عهدا ألا يدوم لها عهد

وإن حقدت لم يبق في قلبها رضا وإن رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء ، وربما يضل بها الهادى ويخنى بها الرشد
سيف الدولة : يابن خالويه ، إن نحوك - علم الله - ليشير على ، ويقلق
هذا الدم تحت إبطى ، ويمسك إبطه متوجعاً ،
أبو الحسن :

بنا لابلك الشكوى ، فليس بضائر إذا صح نصل السيف مالتى الغمد
المتنى :

أيدرى ما أراك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب
وجسمك فوق همه كل دام فقرب ألقها منه عجيب
وكيف تعلق الدنيا بشئ وأنت بعله الدنيا طيب
ابن خالويه ، وحده ، شهد الله إنه لرياء مستنكر ، ومبالغة غير محمود .
سيف الدولة : بم تتمم يابن خالويه ؟ أذهب النحو بالبقية من عقلك ؟
أبو الحسن : أعز الله الأمير ، مازالت به كان وأخوانها حتى ذهبت برشده .
ابن خالويه : صه . كيف تجرؤ أن تهيننى فى حضرة الأمير ؟
سيف الدولة : كفى ، دعونا أنشدكم هذه الآيات التى طالما أعجبت بها ،
على أن يحجزها أبو الطيب :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى أياذى لم تمن وإن هى جلت
قى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينه حتى تجلت
المتنى : يطرق قليلاً ثم ينشد ، :

لنا ملك لا يطعم القوم ، همه مائة لحي أو حياة لميت
ويكبر أن تقذى بشئ جفونه إذا ما رأتها خلة بك فرت
جزى الله عنى سيف دولة هاشم فإن نذاه الغمر سبني ودوائى
أبو الحسن ، مصفقاً : أجدت وأحسن . ألا ترد هذا الذى ارتجلت فأحفظه ؟
المتنى : لا والله حتى يأمر الأمير .

سيف الدولة : أنشد يا أبا الطيب ، المتنبي يردد الآيات وابن خالويه
يسد أذنيه يديه ،

أبو الحسن : هذا هو الذي في أذنيه وقر ، فلا يتذوق جمال الشعر .
ابن خالويه ، متحديا المتنبي ، : غداً العيد فما أعددت لتقول في الأمير ؟
أبو الحسن : إن قصائد أبي الطيب في تهنئة الأمير بالعيد مشهورة .
المتنبي :

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده وعيد لمن سمي وضحي وعيدا
يسمع من الخارج صوت المؤذن فيضع سيف الدولة الكأس جانباً ، ثم
يكبر الجميع مع المؤذن ،
المتنبي :

ألا أذن فما أذكرت ناسي ولا ليلت قلباً وهو قاسي
ولا شغل الأمير عن المعالي ولا عن حق خالقه بكاس
ابن خالويه : أدام الله حياة الأمير ، إن الوقت ليضي سريعا في حضرته .
أهذه هي العشاء ؟

أبو الحسن : والله يا مولاي لو كنت أميراً لأجزلت لأبي الطيب مثل
هباتك له ، فقد علمني الحب إذ يقول :

هام الفؤاد بأعراية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنباً
مظلومة القد في تشبيهه غصناً مظلومة الريق في تشبيهه ضرباً
بيضاء تطمع فيما تحت حلتها وعز ذلك مطلوباً إذا طلباً
ابن خالويه : مستكراً ، تطمع فيما تحت حلتها ، ؟ ويقال هذا في
حضرة الأمير ؟ ثم ما معنى قولك « علمني الحب ، وهل الحب يعلم ؟
سيف الدولة : ليست كل القلوب أهلاً للحب ، فمنها الصخر الأصم ،
ومنها الرقيق الحساس :

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه
إن القليل مضرجاً بدموعه مثل القليل مضرجاً بدمائه

أبو الحسن : أصغ إلى هذا القول يا بن خالويه ، فربما ألان من قلبك :
أرق على أرق .

المتنبى : متممة : ومثلى يارق

أبو الحسن : وجوى يزيد وعبرة تترقق

جهد الصباية أن تكون كما أرى : عين مسهدة وقلب يخفق

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا اثنتى ولى فؤاد شيق

جريت من نار الهوى ما تنطفئ نار الغضى وتكل عما تحرق

وعذلت أهل العشق حتى ذقت

المتنبى : فعجبت كيف يموت من لا يعشق

والله لو كنت الأمير لأعطيتك أنت هذه المنح ، يا أبا الحسن ، إنك لتحفظ

من شعرى أكثر مما أحفظ أنا .

سيف الدولة : : كأنما تذكر أمراً خطيراً — واقفاً ،

أيها القوم ، أفتونى فى أمر بنى كلاب . ما زالوا يشنون الغارة ، ويفسدون

على أمر الرعية .

أبو الحسن : دهبشاً ، : أما ارعوا بعد أن أدبتم فى المرة الأولى ،

تهاب سيوف الهند وهى حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا

ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليث له صحبا

ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا

المتنبى يطرق مفكراً ،

ابن خالويه : متهماً ، : المتنبى يستوحى بنات شعره ليصد عنا .

سيف الدولة : كفى يا بن خالويه ، فيم تفكر يا أبا الطيب ؟

المتنبى : منشداً ، :

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ظم الضراب

وتملك أنفوس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفوسها كلاب

وما تركوك معصية ولكن يعاف الورد والموت الشراب

طلبتهمو على الأمواه حتى تخوف أن تقدمه السحاب
 أبو الحسن : ما أعذب وما أجمل
 ابن خالويه : متهمًا ، وما أحلى
 سيف الدولة : أجز هذه الآيات يا أبا الحسن ،
 أبو الحسن :

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرق بالجآن عتاب
 وإنهمو عبيدك حيث كانوا إذا تدعو لحادثة أجابوا
 وعين المخطئين همو وليسوا بأول معشر خطئوا قتابوا
 المتنبى :

وأنت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهمو عقاب
 سيف الدولة : أجدت ما وأحسنتما ، فماذا ترى يا ابن خالويه ؟
 ابن خالويه :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب
 أعز الله الأمير ، ليس عدلا أن يعاقب القوم كلهم .
 سيف الدولة : والله لو منعوني درهمًا لقاتلتهم عليه .
 المتنبى :

ولو غير الأمير غزا كلا بائنا عن شمو سهمو الضباب
 ولكن ربهم أسرى إليهم فما نفع الوقوف ولا الذهاب
 أبو الحسن : فسأهم وبسطهم حرير
 سيف الدولة : متمًا بحدته ، وصبيحهم وبسطهم تراب
 والله لأعلن القوم كيف يرتدون عن غيهم ، يا غلام دع المغنى يغنى قبل
 أن تدور رحي الحرب ، يسمع صوت المغنى مطرباً الأمير ومن بحضرته ،
 المتنبى :

ما ذا يقول الذى يغنى يا خير من تحت ذى السماء
 شغلت قلبي بلحظ عيني إليك عن حسن ذا الغناء

سيف الدولة : أعلى البديهة تقول هذا ؟

أبو الحسن : ليس هذا بكثير على شاعر الأمير .

ابن خالويه : أعز الله مولاي الأمير ، والله لقد ضقت ذرعاً بهذا المتشاعر ، وإن غروره قد جاوز الحد ، إن الرجل ينبغي حولا وسلطاناً كالذى للأمير .

أبو الحسن : هذه الكلمة يراد بها باطل ، أعز الله مولاي الأمير ، لخير لك أن يكون شاعرك على الهمة من أن يكون ذليلها وهو الذى يقول فيك : بلغت بسيف الدولة النور رتبة ملكت بها ما بين شرق ومغرب سيف الدولة ، غاضباً ، :

أراك قد أسرفت يا أبا الطيب فى مديح نفسك ، فم تعذر عن هذا ؟ أجب المتنبي :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً فداء الورى أمضى السيوف مضارباً
حنانك مسئولاً وليك داعياً وحسبى موهوباً ، وحسبك واهباً
أبو الحسن : رعاك الله ! لا تسمع لقول الوشاة ، فلست أحسب الأمير قد نسى قول المتنبي فيه :

وبمهجتي يا عاذلى الملك الذى أسخطت كل الناس فى إرضائه
إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه
الشمس من حساده والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه
ابن خالويه ، أصلح الله الأمير ، لقد أدخل هذا الرجل على الشعر ما أفسده ، ولعل الأمير يذكر ذلك الهذيان الذى سماه شعراً فى قصيدته التى مطلعها :
ما أنصف القوم ضبة وأمه الطرطبة
سيف الدولة : يزداد غضبه ،

أتقرن غيرى بى فى المديح يا أبا الطيب ؟
المتنبي :

وظنوني مدحتهم قديماً وأنت بما مدحتهم مرادى
أبو الحسن : لله درك حين تقول :

أنا ترب الندى، ورب القوافى وسهام العدا، وغيظ الحسود
ابن خالويه : أنا لست بحسود، وإنما أنا أديب يعرف للشعر قدره
المتنبى : اتق الله يا ابن خالويه
ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيده
صدق من قال : إذا لم تستح فاصنع ما شئت
في الناس أمثلة تدور : حياتها كمهاها ، ومآنها كحياتها
أبو الحسن :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
سيف الدولة : أسرقما في ذم ابن خالويه والتعريض به .
ابن خالويه : معرضاً بالمتنبى ، :
تخفى العداوة وهى غير خفية نظر العدو بما أسرى بوح
مخاطباً سيف الدولة ، :
فلا تغررك السنة موال تقلبن أقدرة أعادى
المتنبى :

أزل حسد الحساد عنى بكتبهم فأنت الذى صيرتهم لى حسداً
وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
أجزنى إذا أنشدت شعراً ، فإنما بشعرى أذاك المادحون مردداً
أبو الحسن : من أجل ما أحفظه لك يا أبا الطيب قولك :
وإذا خفيت على الغبي فعاذر ألا ترانى مقلة عمية
المتنبى : أطال الله بقاء الأمير . لقد خلقت فينا الشجاعة . وكنت لنا المثل
فى ميدان القتال .

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كللى هزيمة ووجهك وضاح وثرعك باسم
سيف الدولة : أما قلت :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
 تمر بك الأبطال كلبي هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم
 المتنبي : أعز الله الأمير ، إني حين ذكرت الموت في أول بيت أتبعته
 بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ،
 وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح ، لأجمع بين الأضداد
 سيف الدولة : أحسنت وأجدت ، « يناوله عطية ، إني لأطرب لشعرك
 يا أبا الطيب ، أنشدني ا

المتنبي :

رأيتك في الذين أرى ملوكاً كأنك مستقيم في محال
 فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
 ابن خالويه : هذا الشعر فيه عيب في الصنعة ، قولك « مستقيم في محال »
 والمحال ليس من ضده الاستقامة ، وإنما ضدها الاعوجاج ،
 أبو الحسن « متهمك » : هب القصيدة جيمية فكيف تروى البيت الثاني ؟
 ابن خالويه :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن البيض بعض دم الدجاج
 « الجميع يضحكون ،

المتنبي : حسن مع هذه السرعة ، إلا أنه يصلح أن يباع في سوق الطير ،
 لا بما يمدح به مثل الأمير .

ابن خالويه « محتداً » : أتتهزأ بي يا شيطان ا

المتنبي :

ومن يك ذا فم ممر مريض يجد مرأ به الماء الزلالا

ابن خالويه : اسكت وإلا . « مهدداً بمفتاح في يده ،

المتنبي : اسكت ويحك ، مالك وللعرية ، إنك أعجمي ا

« ابن خالويه يضربه بالمفتاح ،

« المتنبي يحاول الإمساك بتلابيبه فيصيح به سيف الدولة ،

سيف الدولة : بعد هدوء الباصفة :

لقد اتصف لنفسه

المتنبى : لا بد من رحبلى . ثم ينشد :

يا من يعز علينا أن تفارقهم وجدائنا كل شىء بعدكم عدم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فىك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعياها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فىمن شحمه ورم
إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
ينزل الستار

(لندن)

ابراهيم أنيس

متر بنة المجمع اللوى



معجم الأدباء

بفلم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحالى عمر

الأستاذ بدار العلوم

وبعد فقد صحت عزمي أن أكتب في صحيفة دار العلوم شيئاً مما مر على في معجم الادباء لياقوت أثناء مراجعتي تجاربه النهائية التي كلفتني بها وزارة المعارف بكتاب أرسلته إلى ، وقبل اليد. فيما ارتأيت يجدر بي أن أذكر شيئاً عن ياقوت ، وآخر عن كتب التراجم وما تسديه إلى قراء العربية من أدب جم وعلم زاخر وفقه عظيم .

ياقوت : لا أحاول أن أكتب عن ياقوت كتابة وافية كما يكتب المؤرخون ، ولا أريد أن أتبع حياته فأضعها محل الشرح أو التحليل كما يقول فلاسفة الأدب ، ولكنني سألم به إلمامة تبرد الغليل لمن يتطلع إلى تعرف حياته ، على أن من يرغب في عرفان شخص ما ، فعليه أن ينظر إلى ماترك من أثر وما قدم من عمل ، فإن هذا مكان الحكم على الشخص وموضع الرأي فيه والكلام عليه .

وها هو ذا ياقوت من بين ما أثر عنه كتاباه الجليلان : معجم الأدباء ومعجم البلدان . لقد قرأت في الأول زهاء ثلثيه لجعل لياقوت في ذهني وخيالي عظمة لا كنه لها ، ومكانة قل أن يرقى إليها مبتغى الرقي ، وما ألتى قولي على عواهنه ، ولكنني أؤيده بما كان في نفسي وعقلي وفهمي وإدراكي . وربكم لقد قرأت من كتب الأدب كثيراً ، مستقلاً في القراءة لنفسي ، أو معداً دروساً ، فلم أكن واعياً حافظاً طرياً من تلك الكتب بمقدار ما وعيت من معجم الأدباء ، ولقد بصرتني بكثير من أمور الدول وحرارة العلم والأدب فيها ، ووقف بي حيث يتنافس المتنافسون في كل فن ، ودانى على ما قيده وألفه المؤلفون في كل عصر من كل علم من العلوم الأدبية والشرعية والاجتماعية والطبيعية ، حتى جعل في نفسي صورة واضحة للأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها في مدى ستة قرون ، بما لم أقف عليه من كتب

الأدب أو مذكراته التي يقوم بجمعها الكتّابون . وسيتبين للقارئ حقيقة ما أقول إذا عرضت عليهم في هذه المجلة ما سأختاره مما اشتدّت عليه التراجم التي جلاها لنا في ثنايا كتابه العظيم . هذا ولست مغالياً ولا مفرطاً فيما قدمته من القول ، فإني وأيم الله لم أعد أن قلت الحق ، بل توقّيت تجاوز الحد .

وأما كتابه معجم البلدان فهو الدرة اليتيمة والجوهرة المكنونة . يعرفك عن الأماكن والبلاد والجبال والوديان ، ذاكرة المناسبة بين الاسم والمسمى في كثير مما ذكر ، ضابطاً لك الأسماء بالحروف فيريحك من البحث في كتب اللغة ، ولو أنه وقف عند هذا لكان من الملل ، ولكن يطرفك بذكر شيء من الشعر يرتبط بالبلاد والأماكن ، ويحدثك عن مكاتها العلمية ومبلغ ما تخرج بها من الرجال والعلماء والأدباء والملوك والسلاطين .

وجملة القول أن ياقوتاً في كتابه هذين يعلمك ويرقق من عاطفتك ويسرك بفكاهاته ويندق عليك من العلوم المختلفة ، ويرحل بك من بلاد العرب إلى بلاد العراق وفارس وما وراء النهر ، ثم ينتقل بك إلى سوريا وفلسطين ومصر ، ولا يسهو عن بلاد المغرب والأندلس ، فتري في هذه الممالك حياة الناس في مدى ستة قرون .

وإن رجلاً يكون من آثاره هذان السفران لجدير بأن يكون عظيم النفس كبير العقل رضى الخلق إلى ما شئت من صفات عالية ومكانة سامية . وإذا ما أردت أن أذكر أمراً في عالم التاريخ فما أحسن ما أنه عنه به مثل هذا ، على أني سأذكر بعض ما مر به من أحوال وصروف وحوادث كان لها أثر في تكوينه وبلوغه ما بلغ من العظمة .

ياقوت : روى الجنس حموى المولد بغدادى الدار ، وليه شهاب الدين ، أسر من بلدة صغيراً وبيع ببغداد فاشتراه تاجر يعرف بعسكر بن أبى نصر الحموى ، وكان عسكر تاجراً لا يحسن الكتابة والقراءة ، وهو فى حاجة لكتّاب قارى ، يقوم على عمله ويضبطه ، فلما ابتاع ياقوتاً عهد به إلى من يعلمه فأتته القراءة والكتابة ، وتعلم طرفاً من اللغة والإعراب ، وكان كل هذا بذرا حسناً

في فطرة ياقوت ، إذ علق باللغة وما يرتبط بها ، حتى إنه إذا أرسله سيده في تجارة لا يترك الفرصة تمر عليه بدون أن يستفيد من البلاد التي يمر بها أو يرسو عليها حتى يتصل بعلماؤها وأدبائها ، فيتلقى ويتقن ، ويبقى ويفيد كل ما يصل إليه من تاريخ أو أدب ؛ وما زال هذا شأنه حتى كانت نبوة بينه وبين سيده نجم عنها أن أعتقه وتركه ، فعكف ياقوت يفسخ للناس ما يكلف به من الكتب والصحف زمناً ليس بالقصير ، فكانت الوراقة مدرسة له أفاد منها كثيراً من العلوم والفنون ، وقد ألحت الحاجة على سيده فدعاه ثانية وكلفه العمل ، فمضى فيه ولم يفس ما عاهد عليه نفسه من الدأب في العلوم ، وكان بعد ذلك أن مات سيده وهو في رحلاته التجارية ، فلما جاء بغداد أرضى زوج وأولاد سيده بشيء من مال التجارة ، واحتجز لنفسه قدراً كان رأس ماله ، فرجع إلى الوراقة واتجر في الكتب ووعى منها كثيراً يخبرك عنه في أثناء معجم الأدباء .

وبقي حياً حتى جاءت دولة التتر تخرب البلاد وتسفك الدماء ، وناله من ذلك كثير ، وضاع من ماله شيء لا يقدر بمال ، من المؤلفات والمصنفات ، وجاء إلى الموصل وانتقل منها إلى سنجار ، ثم حلب ، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦٢٦ سنة ست وستين وستمائة ، بعد أن عاش حوالي ٥٠ سنة ، فإن مولده سنة ٥٧٥ خمس وسبعين وخمسمائة . رحمه الله .

وبمناسبة معجم الأدباء أقول : ليس ياقوت أول من عمد إلى ذلك النوع من التأليف ، فقد سبقه كثيرون ، مثل : الجهني والسمعي والصولي وهلال ابن الحسن الصابي ، وقد نبه على هذا ياقوت ، وذكر أن هذه الكتب لا تشفى مريضاً ولا تبلى أواماً . والحق ما قال ، فإني اطلعت على شيء من هذه الكتب وعلى ما جاء بعدها فلم أرو من مائها ولم أبلغ بزادها ولكن الراوى للصدى المشبع النهم هو معجم الأدباء ، وقد جاء بعد ياقوت كتب في التراجم مثل الوافي بالوفيات للصفدي ووفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر ، وكأني بها عالة على معجم الأدباء وكثيراً ما تنقل عنه .

وإني أحدثكم يا سادة أني لم أكن آلف مثل هذا النوع من الكتب حتى

كلفتم بقراءة معجم الآداب ودعاني هذا التكليف للنظر في كتب أخرى كالتي ذكرت وفي غيرها فخب إلى هذا الضرب من التأليف وعلمت أن العلم والفضل ومبعث الثور من سواد صحائف هذه الكتب، وإني لأدعو من لم يمارسها أن يرغم نفسه على مطالعتها فيخرج منها وقد أحس بنفسه وعرف قدرها ومن أجل هذا أقدم شكرى الجزيل وثنائى المستطاب لحضرة صاحب المعالى وزير المعارف ورجالها الكرام إذ كلفوني قراءة التجارب النهائية لمعجم الآداب .

كما أقدم عرفانى بالجميل للدكتور أحمد بك فريد رفاعى إذ قام بطبع هذا الكتاب بمساعدة وزارة المعارف ؛ فجزى الله الجميع عن الآداب والعلم واللغة خير الجزاء.

مختارات من معجم الآداب :

إبراهيم الحربى

إبراهيم بن اسحق بن بشير بن عبد الله بن ديسم، أبو إسحق الحربى، ولد سنة ثمان وتسعين ومائة، ومات ببغداد سنة خمس وثمانين ومائتين فى ذى الحجة ودفن فى بيته فى شارع باب الأنبار، وكان الجمع كثيراً جداً، وأضله من مرو وكان يقول: أُمى تغلبية وأخوالى نصارى أكثرهم . وقيل: لم سميت إبراهيم الحربى؟ فقال: صحبت قوماً من الحريرة (١) فسموني الحربى بذلك .

وحدث أحمد بن سليمان القطيعى قال :

أضقت إضافة شديدة فضيت إلى إبراهيم الحربى لأبته ما أنا فيه فقال لى : لا يضق صدرك فأن الله من وراء المعونة ، وإنى أضقت مرة حتى انتهى أمرى فى الإضافة إلى عدم عيالى القوت . فقالت لى الزوجة : هب أنى وإياك نصير فكيف تصنع بهاتين الصبيتين ؟ فهات شيئاً من كتبك نبيعه أو نرهنه . فضننت بذلك وقلت : اقترضى لهما شيئاً وأنظرينى بقية اليوم والليلة . وكان لى

(١) الحريرة : فى بغداد .

بيت في دهليز داري فيه كتي فكننت أجلس فيه للنسخ والنظر ، فلما كان في تلك الليلة إذا داق يدق الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : رجل من الجيران . فقلت : ادخل . فقال : أطف السراج حتى أدخل ؛ فكبيت على السراج شيئاً وقلت : ادخل . فدخل وترك إلى جانبي شيئاً وانصرف ، فكشفت عن السراج ، فنظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام وكاغد فيه خمسائة درهم ، فدعوت الزوجة وقلت : نهى الصبيان حتى يأكلوا . ولما كان من الغد قضينا ديناً كان علينا من تلك الدراهم .

وكان مجيء الحاج من خراسان فجلست على بابي من غد تلك الليلة وإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقا وهو يسأل عن منزل إبراهيم الحربى فأنتهى إلى فقلت : أنا إبراهيم الحربى . فخط الحملين وقال : هذان الحملان أنقذهما لك رجل من أهل خراسان فقلت : من هو ؟ فقال قد استحلقتني ألا أقول لك من هو

وحدث أبو عثمان الرازى قال : جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربى بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد يسأله عن أمير المؤمنين أن يفرق ذلك فرده وانصرف الرسول ثم عاد فقال : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقه في جيرانك فقال له : عافاك الله ، هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقه ، قل لأمير المؤمنين : إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك . وحدث أبو القاسم الجبلى قال : اعتل إبراهيم بن إسحاق علة حتى أشرف على الموت ، فدخلت عليه يوماً فقال : يا أبا القاسم أنا في أمر عظيم مع ابنتي . ثم قال لها : قومي واخرجى إلى عمك . فخرجت وألقت على وجهها خمارها فقال إبراهيم : هذا عمك كلبه . فقالت لى : يا عم نحن في أمر عظيم لافى الدنيا ولا فى الآخرة الشهر والدهر مالنا طعام إلا كسر يابسة وملح وربما عدمتنا الملح ، وبالألمس قد وجه إلينا المعتضد مع بدر بألف دينار فلم يأخذها ووجه إليه فلان وفلان ، فلم يأخذ منها شيئاً وهو عليل فالتفت الحربى إليها وتبسم وقال : يا بنية خفت الفقر ؟ فقالت : نعم . فقال لها : انظرى إلى تلك الزاوية ، فنظرت فإذا كتب فقال لها : هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبه بخطى إذا مت فوجهى فى كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم فن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس هو فقيراً .

وحدث إبراهيم الحربى - وقد سأله عن حديث عباس البقال - فقال :
 خرجت إلى الكباش ، ووزنت لعباس البقال دانقا إلا فلسا فقال لى : يا أبا إسحاق
 حدثنى حديثا فى السخاء ، فلعل الله يشرح صدرى فأعمل شيئا قال : قلت له :
 نعم . روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه كان مارا فى بعض جيطان
 المدينة فرأى أسود يده زغيف يأكل لقمة ويطعم الكلب لقمة إلى أن شاطرته
 الرغيف فقال له الحسن : ما حملك على أن شاطرته فلم تغابنه فيه بشئ ؟ فقال :
 استحت عينى من عينه أن أغابه فقال له الحسن : أقسمت عليك لا برحت حتى
 أعود إليك فمروا بشرى الغلام والحائط وجاء إلى الغلام فقال : يا غلام قد اشتريتك
 فقام قائما فقال : السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاي ، قال : وقد اشتريت
 الحائط وأنت حر لوجه الله تعالى والحائط هبة منى إليك ، فقال الغلام : يا مولاي
 قد وهبت الحائط للذى وهبته لى . قال إبراهيم : فقال عباس البقال : حسن والله
 يا أبا إسحاق . يا غلام . لأبى إسحاق دانق إلا فلسا ، أعطه بدانق ما يريد ولا
 تنقصه شيئا فقلت : والله لا أخذت إلا بدانق إلا فلسا .

وحدث محمد بن عبد الله الكاتب قال : كنت يوما عند المبرد فأنشدنا :
 جسمى معى غير أن الروح عندكم فالجسم فى غربه والروح فى وطن
 فليعجب الناس منى أن لى بدنا لا روح فيه ولى روح بلا بدن
 ثم قال : ما أظن أن الشعراء قالوا أحسن من هذا . قلت : ولا قول الآخرى ؟
 قال : هيه . قلت : الذى يقول :

فارقتم وحييت بعدكم ما هكذا كان الذى يجب
 فالآن ألقى الناس معتذرا من أن أعيش وأتم غيب

قال : ولا هذا . قلت : ولا قول خالد الكاتب ؟ :

روحان لى روح تضمنها بلد وأخرى حازها بلد
 وأظن غائبتى كشاهدتى بمكانها : تجد الذى أجد

قال : ولا هذا . قلت : أنت إذا هويت شيئا ملت إليه ولم تعدل إلى غيره .

قال : لا ولكنه الحق . فأنتيت ثعلباً فأخبرته فقال ثعلب : ألا أنشدته :

غابوا فصار الجسم من بعدهم ما تنظر العين له قيتاً

بأى وجه ألقاهم ؟ إذا رأوني بعدهم حيا

يا خجلتي منهم ومن قولهم : ما ضرك فقد لنا شيا

قال : وأنتيت إبراهيم الحربى فأخبرته فقال : ألا أنشدته

يا حيائى بمن أحب إذا ما قلت بعد الفراق : إني حيث

لو صدقت الهوى حبيباً على الصداقة لما نأى لكنت أموت

قال : فرجعت إلى المبرد فقال : أستغفر الله . إلهذين البتين يعنى يلقى إبراهيم

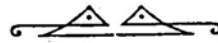
قال : وأنشدرجل إبراهيم قول الشاعر :

أنكرت ذلى فأى شى . أحسن من ذلة المحب ؟

أليس شوقى وفيض دمعى وضعف جسمى شهود حى ؟

فقال إبراهيم : هؤلاء شهود ثقة

عبد الخالق عمر



الطائرُ السجينُ

مرفوعة إلى الأستاذ على الجارم بك

للجارم الصغير

أَسْوَانُ رَاضٍ السَّجْنُ خَفَضَ جَنَاحِهِ ذَهَبَتْ حُشَاشَتُهُ جَوَى بِصِيَاغِهِ
تَرْمِي الدُّجَى صَيَحَاتُ كُلِّ عَشِيَّةٍ بِالْبَرْقِ مُضْطَرِمِ السَّنَا لَمَاحِهِ
نَحْرُ وَقَةِ الرَّمْضَاءِ مِنْ أَضْلَاعِهِ وَوَدَاعُ قُرْصِ الشَّمْسِ بَعْضُ جَرَّاحِهِ
لَا تَسْتَبِينُ الْعَيْنُ فَإِنِّي جِسْمِهِ لَوْ لَا بَيَاضُ الرِّيشِ فَوْقَ وَشَاحِهِ
يَرْمِي الْقَضَاءُ بَصْرَخَةً مَكْبُوحَةً حَمَلْتُ مَعَانِي حُزْنِهِ وَبِرَاحِهِ
يَشْكُو فَيَفْصِيحُ عَنْهُ حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقَوْلُ عَنْ إِفْصَاحِهِ
ضَجَّتْ نَجُومُ الْأَفْقِ مِنْ أَنَاتِهِ وَشَكََا صِمَاخُ اللَّيْلِ طُولَ نُوَاحِهِ
حَتَّى إِذَا ذَبَحَ الْإِنِينُ لَهَا تَهُ عَقَدَ الضَّنَى مِنْقَارُهُ بِجَنَاحِهِ

هُوَذَا أَنَا الطَّيْرُ السَّجِينُ مُعَذَّبًا وَيَلَاهُ، مَنْ يَمْنُنُ بِفَكَ سَرَّاحِهِ ؟
عَلِمَتُهُ التَّغْرِيدَ أَخْضَرَ نَاشِئًا وَرَعِيَّتَهُ بَغْدُوهُ وَرَوَاحِيهِ
وَنَثَرْتُ خَضْبَ الْحَبِّ فِي أَقْدَامِهِ وَسَكَبْتُ عَذْبَ الْمَاءِ فِي أَقْدَامِهِ
يَمْشِي الْمَرْوَجُ الْفِيحَ يَحْبُو جِيدَهَا بِمُنْسَقٍ مِنْ لَحْنِهِ وَصُدَّاحِهِ
يَمْشِي يُنَمِّمُ ثَوْبَهَا وَيَزِينُهُ مَشَى الرَّيِّعِ الطَّلُقِ فِي أَفْرَاحِهِ
وَعَلَى ذَوَائِبِ كُلِّ غَضَنِ عَاطِلٍ مُتَأَنِّقٌ مِنْ وَرْدِهِ وَإِقْلَاحِهِ

مَا بَالُهُ أَمْسَى وَعُفِّرَ وَجْهُهُ .
 وَعَدَاهُ وَضَاءُ الشَّبَابِ بِشَرِّهِ
 يَجْرَى نَسِيمُ الْمَيْثِ سَهْلًا لَنَا
 مَالِي نَصِيبِي الثَّبَقُ أَجْوَفَ يَابِسًا
 مَالِي وَلِلْأَطْفَالِ أَنْجَلُ هَمِّهِمْ
 أَمْسَيْتُ فِيهِمْ نِصْفَ مَجْنُونٍ وَقَدْ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْمُرَّ فِي تَعْلِيمِهِمْ
 أَقْضَى الْحَيَاةَ عَلَى سَفِينِ حَاثِرٍ
 وَلَكُمْ تَقُولُ لِي الْوِزَارَةُ لَا تَنْتَمِ
 أَقْضَى الْحَيَاةَ مُرَدِّدًا وَمُكْرَرًا
 هَذَا (الضَّمِيرُ) وَذَلِكَ (جَمْعُ مُكْسَرٍ)
 وَ (الْعَائِدُ الْمَحْذُوفُ) وَلِي جَائِحًا
 وَيَلَاةُ، لَا تَضْحَكْ عَلَيْهِ مُعْرِقًا
 هَذِي حَيَاةٌ لَا تَلِيْقُ بِوَأَيْبِ
 جَيْشٍ مِنَ الْأَمَالِ يَرْحَمُ صَدْرَهُ
 وَلَقَدْ يَهِيْجُ بِصَدْرِهِ فَتَخَالَهُ
 عَجْفَاءُ تَقْتَحِمُ الْعُمُودُ هُزَالَهَا
 إِنِّي نَزَلْتُ بِهَا مَكَانًا ضَيِّقًا

وَلَكُمْ يُدِلُّ بِمُشْرِقٍ وَضَاحِهِ
 حُزْنًا وَغَابَ الثُّورُ عَنْ مِصْبَاحِهِ
 حَوْلِي ، وَحَطَّى مِنْهُ عَصْفُ رِيَا حِيهِ
 أَيْنَ الْأَيْنِيقُ الْفَضُّ مِنْ تُفَاحِهِ
 كَرَوَانَ يَجْمَعُ لَيْلَهُ بِصَبَاحِهِ
 يَشْتَاقُ هَذَا النِّصْفُ فَضْلَ صَحَاحِهِ
 وَالْمَاءُ فِي كَفِّكَ شُرْبُ قَرَا حِيهِ
 هُوْجُ الرِّيَّاحِ تَهْدُ فِي مَلَا حِيهِ
 وَادْفَعْ إِلَى التَّلْمِيذِ صَكَ نَجَا حِيهِ
 قَوْلًا تَمَلُّ النَّفْسُ مِنْ إِيْضَا حِيهِ
 أَعْيَا حَدِيثَ الطَّبِّ عَنْ إِصْلَا حِيهِ
 فَانْهَضْ عَلَى عَجَلٍ لِكَنْجِ جَمَا حِيهِ
 فَالْخُزْنُ يَخْلِطُ جِدَّهُ بِمِزَا حِيهِ
 يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ لَهُ طَمَاحِهِ
 تَدْنِي حَيَاةَهُ لِطْفَنِ رِمَا حِيهِ
 كَالْبَكْرِ يَهْدِرُ غَاظِيًا بِمِزَا حِيهِ
 لَمْ تُفْنِ حَرَّتَ الْحَقْلِ عَنْ فَلَاحِهِ
 وَالْعِنْدُ لَا يَرْضَاهُ غَيْرُ سِلَاحِهِ

وَلَكُمْ لَزِمْتُ الصَّبْرَ أَنْشُدْ جَاهِدًا فَرَجًا بِهِ أَغْيَا عَلَى مِفْتَاحِهِ
 مَنْ ذَا يَرَى الشُّعْرَاءَ فِيهِ مُعِينَهُمْ إِنْ ضَنَّ وَالْدُّهُمُ عَلَى أَرْوَاحِهِ
 فَلَا تُطْلَبَنَّكَ فِي السَّمَاءِ مُنْقَبًا طَلَبَ الْغَرِيمِ تَضِجُ مِنْ إِخْلَاحِهِ
 وَلَا زِمَتِكَ بِالْأَنِيقِ الْغَضُّ مِنْ زَهْرِ الرُّبَا لَا سُمْرِهِ وَصِفَاحِهِ
 وَأَقُولُ: شِعْرُكَ لَيْسَ يَفْعَلُ مِثْلَهُ ظَنِّي الشَّرَابِ بِلَحْظِهِ وَبِرَاحِهِ
 وَأَقُومُ يَوْمَ الْحَفْلِ حِفْلٍ (إِمَارَةُ الشُّعْرَاءِ) الْخَطِيبَ عَلَى الْجُمُوعِ بِسَاحِهِ
 وَأَصْدُ عَنْ (مَارُونَ) كُلَّ مُبَايَعٍ وَأَكُونُ لَابِنِ (الْعَاصِ) لَا (جَرَاحِهِ)
 وَأَقُولُ بَيْنَ النَّاسِ: إِنَّكَ شَاعِرٌ يُهْدِي إِلَى الطَّائِفِ رِقْشٍ وَشَاحِهِ
 صَلَّتْ عِتَاقُ (أَبِي عُبَادَةَ) نَقْعَهُ وَتَعَثَّرَ (الْقُرَيْشِيُّ) فِي مِرْمَاحِهِ
 يُصْنَعِي الْوُجُودُ إِذَا شَدَا مُتَرَنِّمًا وَيَرْجِعُ التَّارِيخُ رَجْعَ صُدَاحِهِ
 أَلْحَانُ (يَبْتُوهْفَن) مِنْ أَوْتَارِهِ وَخَيَالُ (رُوفَائِيل) مِنْ أَلْوَااحِهِ
 كَافَحَتْ فِي مَجْدِ الْعُرُوبَةِ مُخْلِصًا وَالْعَرَّةُ يُوزَنُ عَادَةً بِكِفَاحِهِ

على سرف الدين

المدرس بدمياط الاميرية

مصطفى صادق الرافعي

٦٨٨١ م - ١٩٣٧ م

في صباح الاثنين ٢٩ من صفر سنة ١٣٥٦ (١٠ مايو سنة ١٩٣٧) روعت البلاد بفقد عميد من عمداء الأدب العربي ، وأديب من أبلغ من عرفت من أدبائها ، وكاتب في الطبقة الأولى من كتاب العربية منذ أقدم عصورها ؛ ذلك هو المرحوم المبرور مصطفى صادق الرافعي .

وحق على صحيفة دار العلوم أن تنعى هذا الفقيه العظيم إلى قرائها ؛ فقد انطوى بموت الرافعي عصر من عصور الأدب العربي كان الرافعي أديبه وكاتبه وشاعره ، وهبات أن يخلفه فيه خلف .

إن الذين يقرءون أدب الرافعي منذ خمس وثلاثين سنة ولم يروه ولم يعرفوه ليعجبون أشد العجب حين يعلمون أن ذلك الشاعر الفحل ، والمنشئ البليغ ، والأديب البارع ، قد مضى وخلف ما خلف للعربية من تراث ولم يجاوز السادسة والخمسين !

أى قوة كانت تحرك هذا الجسد ؟

إنها لمعجزة من معجزات الإيمان هي التي أنشأت هذه القوة فأنثرت بها كل هذا التأثير في هذا الزمن القليل .

كان الرافعي يعيش في هذه الأمة وكأنه ليس منها ؛ فما أدت له في حياته واجبا ، ولا اعترفت له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينهبها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هي في أوهم التقليد وخرافات دعوى التجديد .

على أنه هو لم يبال شيئا من ذلك ؛ فقد جعل لنفسه غرضا منذ يومه الأول : أن يكون اللسان العربي في هذه العجمة المستعربة ، وأن يعيد إلى (الجملة القرآنية)

مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء في لغة هذا العصر؛ ثم أن يكون المدافع الأول عن العربية والإسلام، يدفع كل ما يوجه إليهما من حملات مستورة أو سافرة، ومن أجل ذلك عاش حياته؛ فليقرأ مقالاً أو يسمع رأياً يتناول اللغة أو الدين من قريب أو بعيد، إلا انتضى قلبه بدافع بجملة الإيمان وفصاحة العربي، كأن هذا المقال وذاك الرأي يعنياه هو وحده من دون العرب والمسلمين عامة. وإلى آخر يوم من حياته كان يستجم لمواصلة (حملة التطهير) كما يقول في خطابه الأخير إلى صديقه الأستاذ الزيات صاحب (الرسالة).

وكان له - رحمه الله - طابع خاص يتميز به في الكتابة، لا يسفغه إلا الخاصة من المتأدبين، على علوه في المنزلة البيانية وعمقه في توليد الفكرة واختراع المعنى، ومن هذا كان يكرمه أكثر الأدباء، وكان جمهور قرائه قليلاً محدوداً، ولكنه مع هذا كان أديباً له أثره وله أشياء؛ ذلك أن غرابة أسلوبه كانت تعود إلى عمق فكرته ودقة معانيه وسلامة بيانه من العامية المتفصححة التي يكتب بها أكثر كتابنا في هذا العصر؛ وما في ذلك شيء يعاب إلا عند الذين يقرءون للتسلية وإزجاء الفراغ؛ ومن كلماته - رحمه الله - في ذلك: «إن الأديب الحق هو الذي يحاول أن يرفع قراءه إلى مستواه درجة درجة فيرقى بهم ويرقى بالأدب، لا الذي يحاول أن ينحط إلى مستواهم درجة درجة فينزل بهم وبالأدب جميعاً».

رحم الله الرافعي رحمة واسعة، وعوض العربية منه خيراً ينسيها المصاب فيه

فهرس العدد الأول

للسنة الرابعة

- مقدمة ١
- منهج الأدب في السنة التوجيهية ٢٥
- ملاحظات جماعة دار العلوم على المنهج ٤٥
١. أثر علم الكلام في الأدب : بقلم محمد موسى عفيفي
٢٥. بشر بن المعتز : د حسن شلوان
٤٥. الجاحظ : د عبد الستار سلام
٥٣. أسلوب الجاحظ : للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٦٨. أحمد بن أبي دؤاد : بقلم احمد هاشم عطية
٨٠. ثمامة بن أثرس : للأستاذ علي السباعي
٩٣. حافظ الراوية : د محمد هاشم عطية
٩٩. المذامح والنهائى والرثاء في شعر المفضل }
له حافظ بك ابراهيم }
د محمود البشبيشى
١٠٦. الغزل والنسيب في شعر حافظ : د السباعي ييومي
١١٧. حافظ إبراهيم: المديح في شعره : بقلم حسنين مخلوف
١٢٤. في الأمم السامية : للأستاذ محمد محمود جمعة
١٣٢. دار العلوم والمتنبى في لندن : بقلم عبد الرازق إبراهيم حميدة
١٣٥. المتنبى في مجلس سيف الدولة : د إبراهيم أنيس
١٤٨. معجم الأدباء : د الأستاذ عبد الخالق عمر
١٥٥. الطائر السجين : للجارم الصغير
١٥٨. مصطفى صادق الرافعى : التحرير